أضحوكة العطش

1 - أنا وذهني

- آوه ! إنت ! هيا استعد لبدء رحلتنا.

- أي رحلة يا هذا! لست مستعدًا – على الإطلاق – لأي رحلات، أنا أحتاج للراحة التامة.

- الراحة التامة! هذا تعبير يقوله الأطباء للمرضى المرهقين، وأنت مرضك في كسلك؛ فهيا تخلص من هذا الكسل الملعون، لنبدأ الرحلة.

- إلى أين ؟!

- إلى بلد آخر، في كوكب آخر، في زمن آخر.

- آه !! رحلة بين الكواكب والنجوم والأزمان، وسفن فضائية وآلات زمن إلخ.. إلخ.. يا صديقي إنها رحلة تقليدية قام بها قبلك آلاف من كاتبي روايات الخيال العلمي ومخرجو أفلامه.. دعك منها.. دعك منها.. هيا استرح واسترخ واستجم واهدأ فهذه رحلة لن تضيف جديدًا.

- صدقني إنها رحلة غير تقليدية، إنها رحلة إلى كوكب حافل بالجربانين.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، وما حاجتنا بالجرب والجربانين! إذا كنت في شوق جارف لأن تكون أجربًا فليس أسهل من ذلك، كل ما عليك أن تكف عن الاستحمام و...

- إنها رحلة تستحق التأمل.

- يا سيدي، تأمل وحدك، أنا لا أريد أن أصاب بالجرب، فاذهب وحدك لهذه الرحلة، وسأنتظرك بشوق حتى تعود، هذا إن عدت بلا جرب.

- أنت ذهني، ولابد أن تطاوعني في كل رحلاتي وأفكاري.

- نعم أنا ذهنك الذي تجهده وترهقه وتقطع أنفاسه كي يقول القراء عنك إنك كاتب تحرير ومتمكن، وقد ترزق بناقد يكتب عنك، وتنال المجد والشهرة والجوائز دون أن أنال سوى النصب والمشقة بلا حدود ، لك الحلوى ولي النار، هذه قسمة ضيزى.

- هاها.. هاها.. أضحكتني والله، هون عليك يا ذهني العزيز، فأنت تعلم أن عامة أهل القلم يتشكون من قلة عدد القراء وصعوبة النشر وقلة مواكبة النقد للأدب، أما الكلمات الكبيرة التي تناوشني بها من نوع المجد والمال والشهرة، فهذه الأشياء متوفرة بالفعل في بلادنا الغالية والحمد لله، ولكن ليست للأدباء والمثقفين، وأنت تعلم أيضًا أن الأديب الحقيقي لا يكتب من أجل هذه الأعراض الزائلة التي تذهب جفاءً.

- لماذا نكتب إذن ؟!

- سؤال سهل ممتنع، تتعدد إجاباته بتعدد المجيبين عنه، وتتراوح من البساطة وأحيانًا السطحية إلى العمق وأحيانًا الغموض والتقعر، وذلك لأنه لا أحد يعرف – يقينًا – ممن ينتمون إلى قبيلة الكتابة لماذا يكتب، أتعرف يا ذهني العزيز؟!!

- لا أريد أن أعرف.

- حينما تقدم الفنان الراحل أحمد زكي لاختبارات التمثيل – في بداية حياته – سأله الممتحنون ! لماذا تريد أن تكون ممثلاً ؟! فرفع يديه بحيرة حقيقية مجيبًا "مش عارف والله".

وخرج من الامتحان يعتقد أنه سيرسب بسبب إجابته، دون أن يدرك أن هذه الإجابة هي التي أهلته للحصول على الدرجة النهائية.

- حسناً، ما رأيك لو تمتشق حسامك (كما يقولون في القصص التاريخية) أقصد تمسك بقلمك المسكين البائس لتكتب مقالاً – سأمليه عليك – عن جدوى الكتابة، وهل الفن للفن أم الفن للواقع ومثل تلك القضايا، ودعك من حكاية كوكب الجربانين هذه و.....

- اسمع يا ذهني الحبيب، لقد قررت القيام بهذه الرحلة، ولا مجال لك للهرب فهيا استعد.

- ماذا ! هل ستكرهني على هذه الرحلة ؟!

- مطلقًا يا ذهني العزيز، ومنذ متى وأنا أجبرك على الكتابة!! فقط أحاول استنفارك، أهيأك للرحلة، أخلصك من كسلك، لكن لو لم تكن تريد حقيقة فسأتركك حتى تستعد.

- أعرف جيدًا أن الله قد ابتلاني بك شر بلوى.

- ها أنت وافقت فهيا بنا.

- أمري لله، أين آلة الزمن؟! أهي تلك التي هناك ؟!

- بل هذه الغسالة، والرحلة لا تحتاج إلى آلة زمن ولا سفن فضائية، وليست مكلفة، فأنت من سينقلني إلى هذا الكوكب البعيد في الزمن الآخر.

- أسأل الله أن يريحي منك بأن تموت أو تصاب بالـ ألزاهايمر.

- سامحك الله، والآن هيا بلا كسل.

- لي شرط.

- .....

- عندما نصل إلى هناك، سأتجسد لأكون شخصًا آخر، يتكامل معك لنصير كتوأمين صديقين، وليس مجرد تابع لك.

- لك هذا، والآن هيا بلا كسل.

2 - هرش ومعارك وعطش

لن تشكو من وعثاء السفر ومخاطر الانتقال بين الزمن والفضاء لأننا – ببساطة – قد وصلنا، وها نحن الآن في البلد المطلوب من الكوكب المطلوب في الزمن المطلوب.

- ما هذا الذي هناك ؟!

- دعنا نقترب، نقترب أكثر.

شارع كبير، الناس يروحون ويجيئون وقد انتابتهم حالة غريبة من الهرش المحموم، البعض يهرش بكلتا يديه، الهرش يتخذ إيقاعات غريبة وعجيبة ومتنوعة، يكاد يكون لغة في حد ذاته، طريقة الهرش لها دلالات معينة يفهمها الناس هنا.. هذا ما يبدو للوهلة الأولى، ولكن ما هذا الذي هناك ؟!

- أليس هذا مخبزًا أو جمعية تعاونية أو ما أشبه ؟!

- وما أدراك يا ناصح ؟!

- هذا الازدحام والمعارك الطاحنة بين المتزاحمين، إنهم يشتبكون مع بعضهم، يتعالى الصياح بشكل هستيري، والهرش يتزايد بعنف، أصوات الهرش تكاد تنافس الصخب.

الاشتباكات صارت عنيفة للغاية، يتبادلون الضربات واللكمات، يمزقون ثياب بعضهم، العصي والأسلحة البيضاء لها دور فعال، رغم الانشغال الكامل بالمعارك وتصاعد الأدرينالين في العروق إلا أن أحدًا لا ينسى الهرش، يبدو أن الهرش هنا واجب مقدس.

الأصوات والهرش والدماء والحر الشديد والازدحام الرهيب تشكل مزيجًا عجيبًا، هذه فرصة ذهبية وفضية وبرونزية لكافة الأمراض المعدية لعقد مسابقات وأولمبياد الانتشار بين هؤلاء الناس.

- ألا تلاحظ شيئاً ؟!

- هناك الكثير مما يمكن ملاحظته هنا، فماذا تقصد بالضبط ؟!

- رغم كل ما هم فيه إلا أنني لا أرى حبة عرق واحدة على جسد أي منهم.

- ربما لا يعرقون لا تنس أنهم كائنات فضائية مختلفة عنا.

- العراك تحول إلى كتلة من اللحم البشرى المتلاحم بقوة العنف الحاقد والكراهية الشنيعة.. أحدهم خرج من كتلة اللحم وعلى وجهه فرحة النصر المبين، يحتضن شيئاً بقوة وعنف وحرص، يحاول الهرش، يتقافز كالكرة وهو يزداد تشبثًا بهذا الشيء الذي يحتضنه.

- ماذا يحتضن ؟!

- هيا نقترب أكثر.

إنه يحتضن ما يشبه زجاجة مياه، بل زجاجتين، يطير بهما قاصدًا بيته... شخص آخر انفصل عن كتلة اللحم المتصارعة، وقت يمر والمعارك تزداد ضراوتها، وبعض الفائزين ينفصلون عن المعركة، وقت آخر يمر ثم يغلق باب المكان الذي يحصلون منه على زجاجات المياه.

تزداد حالة الهياج بين المتزاحمين، وتشتد ثورتهم، والهرش يتضافر مع الشتائم والسباب والصراخ لصنع حالة عجيبة من العواء المهيب، والغضب بدا قوة عاتية لا يدري أصحابها إلى أين يوجهونها.

أحد الفائزين يجري بأقصى سرعته، العيون الزائغة اصطادته.

- أعطنا ما معك من زجاجات.

أبشع أمارات الرعب ترتسم على وجه الفائز، يحتضن ما معه بغريزة البقاء، تبدأ المطاردة ومعها تفرز الأجسام أطنانًا من الإدرينالين، وقد تحول الفائز بزجاجتين إلى آلة للجري المرعوب، يعوي مستغيثًا بلا أحد.

- أعطنا ما معك وإلا جعلنا لك قيمة وثمنًا.

يجري مرتعشًا صارخًا:

- لا .. لا.

والغضب يتعالى ملتهبًا فيمد المطاردين بقوة وسرعة عنيفتين، وتقترب المسافة بين الفريسة والصائدين وتقترب وتقترب و...

وظفروا به.

- هل أكلوه أم اكتفوا بتمزيقه أشلاءً ؟!

- هل يأكل هؤلاء لحوم بعضهم ؟!

سرعان ما تحولت المطاردة لمعركة أخرى، زجاجات المياه تنتقل من يد لأخرى، لا تكاد تستقر لحظة واحدة في يد واحدة.

- لم تجب عن سؤالي، هل تعتقد أنهم يأكلون لحم البشر ؟!

- لا.. لست أعتقد هذا ؛ فكل اهتمامهم وعيونهم الزائغة وأظافرهم المخيفة تتصارع على الزجاجات.

- الضحايا يسقطون بكثافة عالية، هناك من فارق الحياة بالفعل، وآخرون لازالوا يصارعون الموت.

- انظر، عربات الشرطة أو الإسعاف قد وصلت، المعركة لازالت محتدمة وسيارات الشرطة تقف بالقرب منها، نزل بعض رجال الشرطة يراقبون المعركة بحياد كامل وبعضهم ينظر بضجر في انتظار نهاية هذه المعركة المملة، رجال الإسعاف يحملون الجثث والمصابين، يوزعون جهدهم بين العمل والهرش، يرمون الضحايا في العربات حتى هتف قائدهم.

- اكتملت حمولة هذه السيارة، انطلق أيها السائق.

تنطلق السيارة فيشير القائد لسيارة أخرى يبدأ رجاله في تعبئتها، أما قائد حملة الشرطة فيتحرك بين الضحايا بملل، يسأل متضجرًا:

- هل من تجاوزات ؟

يجيبه أحد رجاله بضجر مماثل تعبر عنه طريقة هرشه:

- لا.

يتثاءب قائد حملة الشرطة مشيرًا لرجاله:

- حسناً، هيا بنا.

يتحرك الركب مبتعدًا، وتبقى ساحة المعركة خالية إلا من البقايا، الدماء، إصبع هنا، ظفر هناك، وقدم طارت بعيدًا، وتعود حركة السير الطبيعية وتستمر الحياة العادية لهؤلاء القوم.

من مخبأ ما يظهر فائز بزجاجتين نجا من خوض المعركة، يخفي كنزه الثمين بمهارة فائقة بين ملابسه، يهرش بفرحة غامرة، يخشى من فرحته، يتلفت حوله ليتأكد أن أحدًا لم يره يهرش بهذه الفرحة، يلوم نفسه على إظهار الفرحة الحمقاء، يضبط انفعالاته، ويضبط هرشه، ويسير في الشارع بهدوء شديد كأي شخص لا يلفت نظر أحد، يدور مع دوران الشارع ثم يدلف إلى حارة ضيقة، تلفت نظره امرأة عجوز ملقاة بإهمال شديد، يتدلى لسانها خارج فمها وقد أوشكت على الموت عطشًا، تتحرك بداخله مشاعر نادرة ربما ولدها شعوره الآني بفرحة النصر، قرر أن يشكر ربه محتفلاً بنصره، تلفت حوله يمنة ويسرة وإلى أعلى وفي كل الجهات الأصلية والفرعية، تأكد – ربما للمرة العاشرة – أن أحدًا لا يلمحه، بحذر شديد أخرج إحدى زجاجتيه وفك غطاءها، فم الزجاجة يبدو ضيقًا للغاية لا يكاد يسمح بتنقيط المياه، اقترب من العجوز الموشكة على الهلاك، نقَّط على لسانها نقطة واحدة، انتشرت قطرة الماء على لسانها، رطبته، العجيب أن المرأة استشعرت الارتواء أو أقنعها عقلها بالارتواء، دخل لسانها إلى فمها، راحت عافيتها تعود إليها رويدًا رويدًا، استطاعت أن تنهض جالسة، تنظر إليه بامتنان شديد ثم انطلقت تدعو له بضراعة بالغة صادقة:

- اذهب يا ولدي، أسأل الله ألا يجعل لك ثمنًا ولا سعرًا، ربنا يجعلك تعيش حياتك هكذا رخيصًا بخسًا بلا أهمية ولا تقدير ولا اهتمام ولا حب من أحد.

نهرها بصوت منخفض، وراح يتلفت يمنة ويسرة وإلى أعلى وهو يهرش بخوف وحذر ثم فر منها هاربًا حتى اختفى، وراحت المرأة تتلفت بدورها ثم واصلت طريقها هارشة بأظافرها الطويلة وهي تغني:

المية تروي العطشان

وتطفي نار الجربان

- ألا تلاحظ هذه الدعوات الغريبة ؟!

- ألا يلفت نظرك في هذا كله إلا الدعوات !

- يا للسعادة !

- ماذا ؟

- انظر هناك.

- ماذا هناك ؟

- رزق ساقه الله إلينا.

3 - قمامة

- ورقة مالية من فئة كبيرة، سنأخذها.

- دعنا نسأل عن صاحبها، فلابد أنه قد حزن عليها كثيرًا؛ وإذا لم نجده نضعها في مسجد أو.....

- دعنا من مثاليتك المغيظة هذه ، وتذكر أننا في بلد عجيب في كوكب عجيب، نحن كائنان فضائيان، ولست أعتقد أن الكائنات الفضائية تتميز بأمانتك هذه، ثم إن هذه الورقة تمثل مائة دولار.

- الغريب أننا وجدناها وسط الشارع رغم تزاحم الأقدام، كنت أتوقع أن يتصارعوا عليها كتصارعهم على زجاجات الماء.

- هذا يثبت أنها نصيبنا، أرسلها الله لنا.

- حدث هذا معي، حيث وجدت حافظة نقود – وسط الشارع – بالقرب من محطة أتوبيس، لكني لم أستول عليها بحجة أنني كائن فضائي.

- هيا نسر في طريقنا.

- انظر.. انظر.

- يا للحظ الضاحك، حظ لم أصادفه طوال حياتي على كوكب الأرض، يبدو أن الكلام الفارغ عن الكواكب والحظ والأبراج والنجوم له ظل ما.

- مائة جنيهٍ أخرى.

- هل وصل الثراء بهؤلاء القوم أن يبعثروا أموالهم هكذا في الشوارع!!

- ربما كان لديهم بعض الحمقى الذين يتفاخرون بشيء كهذا نتيجة عقدة نقص أو... أو أي شيء من هذا القبيل، هل نسيت أن بعض الأمراء كانوا يسيرون في شوارع لندن وباريس يبعثرون الدولارات!!

- لو كان الأمر كذلك هنا لهجموا على الأموال هجوم مجاذيب السيدة زينب على السيدة التي توزع شطائر الفول النابت كوفاء لنذر عليها.

- ربما لم يروا هاتين الورقتين الماليتين.

- إذن فالحظ يضحك لنا بالفعل على هذا الكوكب.

- هاها .. هاها.

- لماذا تضحك بهذه السخرية.

- انظر.

- لا شيء يلفت النظر، مجرد عامل نظافة يؤدي عمله، يوزع جهده بين كنس الشارع والهرش بجنون غاضب وعلى وجهه قرف عظيم.

- لا تنظر إليه ، بل انظر إلى ما يكنسه.

- إنه يكنس الكثير من العملات المالية من فئات متعددة ، وعملات محلية وعالمية، يبدو الشارع نظيفًا إلا من هذه النقود، يتأفف العامل، يهرش بضيق:

- هؤلاء المتخلفون لا يكفون عن رمي قمامتهم في الشارع، لست أدري ما جدوى النظافة أصلاً.

- من الذي كان يتحدث عن الحظ الضاحك ؟!

- أنت.

- بل أنت !

- النقود – هنا – مجرد قمامة.

- هيا تخلص من المائة دولار وأختها الجنيهات المائة، تخلص من هذه القمامة ليكنسها هذا العامل الحليم.

- لو فعلت الآن سيفتك بنا.

- لا أستوعب أبدًا فكرة أن تكون النقود مجرد قمامة يتأفف منها عامل النظافة، ما رأيك لو نحتفظ بالورقتين كتذكار، وسينفعان عندما نعود إلى كوكبنا.

- هذه أوراق فضائية لن تنفع عندنا.

- دعنا نقترب من هذا العامل لعله يفيدنا بشيء.

- كان الله في عونك أيها العامل.

رفع العامل رأسه بضيق شديد، وهرش بتساؤل مندهش.

- من أنتما أيها الوقحان؟ وماذا تفعلان هنا أيها الوغدان ؟!

- بداية مبشرة للغاية.

- نحن.. نحن مواطنان نبحث عن أقرب مكان نشترى منه طعامًا.

صرخ العامل بعنف مريع.

- أغربا عن وجهي أيها الكلبان، أغربا وإلا جعلت لكما ثمنًا وسعرًا.

- ما هذا التهديد الغريب الذي نسمعه هنا.

- إنكما.. إنكما لا تهرشان، لا تهرشان، لابد أنكما جواسيس.

- كلا يا سيدي لسنا جواسيس، نحن...

استل العامل مكنسته سلاحًا يقاتل به الجواسيس الأشرار الذين أسرعا بالفرار والعامل يطاردهما في محاولة حقيقية للفتك بهما مثيرًا زوبعة من الصراخ، ولكن من حسن حظهما أن الرجل – من طريقة مطاردته – تظهر عليه علامات كلل بصره مما سمح لهما بالهرب، وبقي هو يتلفت ويدور حول نفسه متراقصًا بالمكنسة، وقد تحول إلى رشاش مخيف تندفع منه قذائف الشتائم والسباب والرذاذ في كل اتجاه.

4 - البحث عن دليل

سير فى الطريق، لا سيارات ولا وسائل نقل أخرى، الطريق حافل بالمرتفعات والمنخفضات والمستنقعات والتضاريس المتنوعة التي تحكي عنها كتب الجغرافيا، وعلى جانبي الطريق بنايات كئيبة متفاوتة الارتفاعات، وعلى كل بناية لوحة ضخمة تحمل صورة لشخص خفيف الشعر، منتفخ الوجه حليقه، كبير الأنف، يسند ذقنه بإبهامه ويضع وسطاه وسبابته على خده الأيمن في محاولة للظهور بمظهر المفكر والفيلسوف الذي لا نظير له، لا يستطيع سقراط ولا أرسطو ولا أفلاطون ولا أينشتين ولا حتى ابن سينا وسائر كتيبة الفلاسفة والعلماء الكبار أن يبدو بشكل كهذا، فقد بذلت جهود كبيرة من عدة جهات وأفراد وكان للتكنولوجيا دور حيوي لتظهر الصورة بهذا الشكل.

- هذا زعيمهم أو رئيسهم بلا شك.

- هل تلاحظ ؟!

- نعم ، الصورة تقبع على صدور البنايات..

والبيوت.. وعلى المحلات والمكاتب..

والشركات والأكشاك..

وفي غرف النوم وعلى الملابس الداخلية..

- لعلَّ هؤلاء القوم ينفقون أكثر دخلهم على صور وتماثيل زعيمهم هذا.

- هل تعرف معنى هذا ؟!

- هيا نكمل سيرنا.

- نواصي الشوارع هنا واسعة كالميادين.

- بالطبع حتى تتسع لهذا.

- ما هذا ؟!

أصوات لأشخاص يحرقون بالنار على أقل تقدير.

استغاثات مريعة بلا أحد.

- اقترب كي نرى ما هناك.

رائحة بشعة للحم بشري يحترق.

أقفاص واسعة تشبه الأقفاص الحديدية التي تغلق على لاعبي المصارعة كي يدقوا عظام بعضهم البعض، داخل كل قفص أحواض صغيرة بها سوائل عجيبة، البعض غارق في هذه السوائل، أحدهم يقاوم الغرق في هذا السائل، يتلوى جسده، يناضل، يقاتل، يقاوم بكل ما أوتي من غريزة البقاء كي يلتقط بعض الأكسجين الذائب في هذا السائل العجيب الذي يبدو لزجًا يسمح – كل فترة طويلة – بدفقة صغيرة من الأكسجين تجعل الشخص لا يموت، ولكن يبقى عذاب الغرق مستمرًا، كلما أوشك الشخص على الموت الحتمي تأتيه دفقة الأكسجين ثم يعوي الجسد مقاومًا الموت مرة أخرى وهكذا في كابوس لا ينتهي.

- شخص يقف عاريًا في حوض به حمض (لم تعرفه كتب الكيمياء في كوكب الأرض) يغوص الجسد كاملاً في الحوض – عدا

الرأس – يصرخ الشخص صرخات وحشية إذ يعاني عذاب الاحتراق الذي ينتاب كل جسده ويشم رائحة لحمه يحترق، رغم أن الجسد لا يحترق على الحقيقة، ولكن يبدو أن ذلك الحمض العجيب هو المسئول عن وضع الإنسان في حالة احتراق كاملة دون احتراق حقيقي في كابوس دائم لا ينتهي.

- شخص يجري برعب شنيع فوق سير كبير يتحرك بسرعة متعالية، الشخص تنقطع أنفاسه، يسيل عرقه ودمه حتى لا يسقط في الحمض المحرق أو المغرق، ولكن- مع السرعة المذهلة للسير – يكون السقوط حتميًا في أحد الحوضين الذين يدوران بسرعة رهيبة (تحت السير) ويقذفه حظه في ألم الغرق أو عذاب الاحتراق.

- خازوق ضخم يخترق شخصًا، يمر عبر جسده ويمضي خارجًا من رأسه، وعلى مقدمة الخازوق (المخترقة للرأس) صورة كبيرة للزعيم في مشهد فانتازي مهول، الخازوق ليزري مشع يتطاير منه الشرر، مصمم بحيث لا يموت الشخص إلا بعد عدة أسابيع.

- تتم إدارة كل قفص –بشكل آلي تمامًا– من خلال سوبر كمبيوتر يقبع أعلى القفص، وفوق كل قفص تمثال ضخم لزعيم القوم.

- الناس يمرون أمام الأقفاص دون أن يلفت انتباههم ما يحدث فيها، ولا تلمس أذانهم الأصوات المنبعثة من الجحيم الآلي، حالة تبلد عجيبة تسيطر على الجميع، بعض الصبيان يلعبون بالقرب من الأقفاص، عاشقان يتهامسان بوجد ملتهب وكل منهما يهرش للآخر.

- هيا نمضي من هنا.

- نحن بحاجة ماسة إلى دليل يقودنا في هذه الرحلة الرومانسية.

- بعد اللقاء بعامل النظافة الطيب أعتقد أننا لن نجد بسهولة.

- لابد أن نجد حتى لا نظل هكذا.

- ربما لو أن الدنيا ما يمكن أن نغري به أحدهم ليقوم بهذه المهمة السامية.

- مثل ماذا ؟!

- مثل زجاجة ماء.

- ومن أين نأتى بها ؟!

- لا تقل لي نشترك في إحدى معاركهم على الماء.

- يمكننا أن نعود إلى كوكبنا المائي فنحضر آلاف الزجاجات من الماء العذب النمير، وساعتها يمكن أن.....

- إذا عدت إلى كوكبي فلن أعود إلى هذا الجحيم مرة أخرى.

- لكن لابد أن نتعرف بهذا العالم الغريب.

- أدعو ربي – دائمًا – أن يخلصني منك.

- إلى أن يستجيب الله لك فأنت مضطر لمصاحبتي، فهيا نبحث عن دليل أو زجاجة ماء نغري بها من يصلح دليلاً.

- يمكننا استخدام قدراتنا – ككائنات فضائية شديدة الثقة والاعتداد بنفسها – فندخل إحدى هذه الجمعيات التي توزع زجاجات الماء فنسرق واحدة ونخرج دون أن يرانا أحد.

- تريدنا أن نسرق قوت هؤلاء البؤساء !

- مثاليتك هذه تفقأ مرارتي وتلهب قولوني، يا سيدي تذكر أن سرقة زجاجة ستعود لأحدهم مرة أخرى ليست بسرقة بالمعنى

الحقيقى، وإذا كنت ترفض السرقة فيمكنك أن تشترك في إحدى معاركهم الطاحنة، لتنتهي ميتًا أو تتنزه في أحد أقفاصهم الحديدية.

- لا تغضب هكذا؛ لكن عليك القيام بهذه المهمة السامية.

- لا بأس، انتظرني ثانية واحدة.

- هل ست....

- هذه زجاجة ماء معتبرة.

- قد حللت المشكلة بأسرع مما يفعل جني مصباح علاء الدين.

- أمدح هذا أم سخرية ؟! كنت تريد زجاجة ماء فأتيتك بها، وإذا لم تعجبك فيمكنني إعادتها مرة أخرى.

- لا.. لا.. من حسن الحظ أن هذه رواية ليست واقعية وإلا...

- هيا نبحث عن دليل.

- انظر لهذا الرجل هناك، يبدو هادئًا متزنًا، يمكن الاعتماد عليه.

- آوه ! سيدى ! السلام عليكم أو صباح الخير أو نهارك سعيد أو أي تحية أخرى تروق لك، ما رأيك لو تحصل على زجاجة ماء.

الرجل يبدو مبهوتًا، مأخوذًا، يستعيد رباطة جأشه بسرعة متخذًا وضعًا قتاليًا كأنه مصارع محترف.

- ماذا تريدان أيها الـ...

- لا داعي للشتائم أو هذا التحفز للقتال، فقط نريد منك خدمة، وسنعطيك المقابل، زجاجة مياه كاملة.

صرخ الرجل بعنف:

- إنكما تريدان أن تجعلا لي ثمنًا، تريدان قتلي، وسأقتلكما أولاً وأبيع أعضاءكما يا أولاد الأفاعي.

وعاد فأطلق صرخة قتالية وقد ارتسم الشر في ملامحه وتطاير الشرر من عينيه، وكشر عن أنيابه وانتكش شعره وانقض و...

ولم يجد أحدًا أمامه ؛ فبسرعة البرق اختفيا من أمامه ثم سلكا طريقًا آخر.

- أعتقد أننا نتمتع بميزة هائلة فى هذا العالم.

- تذكر أن هذه الميزة بفضلي أنا.

- بفضل الله ثم بفضلك يا سيدى، ولكن هيا نبحث عن دليل آخر يكون أكثر رومانسية من هذا الذى يريد بيع أعضائنا.

- هذه السيدة هناك، ربما كانت أمًا مكافحة، تناضل من أجل أبنائها الأيتام، مسكينة لا طاقة لها بالزحام الرهيب والتعارك في حرب المياه، ولو عرضنا عليها الزجاجة التي معنا فيمكن أن...

- اختيار خاطئ تمامًا يا صديقي؛ فإذا كان الأول رجلاً مصارعًا قد خاف من عرضنا فهي ستكون أكثر خوفًا؛ فربما تعتقد أننا نريد خطفها أو مراودتها عن نفسها، فهذا النوع المكافح من السيدات يكون ذا حساسية مفرطة تجاه مثل هذه العروض المغرية.

- ربما كان الخطأ أننا عرضنا على الرجل زجاجة كاملة، فقد رأيت كيف أن قطرة ماء واحدة قد روت عطش المرأة العجوز ، إننا بعرض الزجاجة على الرجل كأننا عرضنا – في كوكبنا – على أحد السائقين مبلغ عشرة آلاف جنيهًا – مثلاً – في مقابل أن يوصلنا من محطة رمسيس إلى عين شمس، فبالتأكيد لن يكون هذا السائق ودودًا معنا.

- هل نعرض عليها قطرة واحدة مثلاً أو قطرة لكل ابن من أبنائها أو.....

- الأفضل أن نلجأ للأحوط والأضمن؛ فنحن لا نعرف بعد كيف يتعامل هؤلاء مع المرأة ولا شكل العلاقة بين الجنسين. فالأفضل أن نستعين برجل.

- آه! لقد تذكرت أمرًا آخر مهمًا للغاية.

- .....

- عندما تحدثنا مع الرجل نسينا أن نهرش.

- حسناً هيا بنا.

يهرشان، يشجعان بعضهما على الهرش بإخلاص، يقتربان من جمعية أخرى، الحرب على الزجاجات ضارية، مريعة، شنيعة، ينتقيان شخصًا ضعيف البنية، قصير القامة، نحيلاً كعود قصب نخره السوس، ممصوص مرتين ، وإن كان عود القصب لا يرتدي قبقابًا تغوص في فردتيه قدماه، وقف ينظر للمعركة بيأس وحكمة شديدين ويهرش بعنف، ينتقل الهرش من جسمه لرأسه بحيرة، يوقن بعدم قدرته على خوض المعركة، يمط شفتيه وينظر بسخرية ، يخاطب نفسه هانئا:

- اختر لنفسك، الموت عطشًا أو الموت فى المعركة !

يتبادلان نظرة ظافرة يقتربان منه، يهرشان، يخلصان في الهرش:

- يمكنك ألا تموت بأن تحصل منا على قطرة ماء مقابل خدمة تسديها لنا.

ينتفض مرعوبًا وقد أخذته المباغتة ، يتمالك نفسه ثم يتفحصهما بنظرة أريبة مستريبة طويلة وهو يهرش بضيق شديد وسرعان ما بدا عليه الصبر النافد فهتف:

- ماذا تريدان أيها النجسان ؟! فأنا مشغول بشدة.

- نحن نريد.....

يقاطعهما بانقضاضة مباغتة يحاول بها أن يتطاول ليخمش وجههما إلا أنهما كانا يتوقعان ردة فعل كهذه فتفاديا انقضاضته في الوقت المناسب فزاده ذلك غيظًا فكرر المحاولة هاتفًا:

- سأفضحكما أيها الغريبان التعسان.

- لا داعي لهذا، دعنا نتفاهم ولن تخسر أبدًا.

يحاول أن ينتفخ – وإن هدأ قليلاً – وهو يقول بخبث:

- أيها الملعونان، أنتما لستما أجربين، هرشكما يؤكد أنكما تمثلان الجرب بلا حاجة حقيقية للهرش، وهذا يعني أنكما لستما من هذه البلاد، فهيا أخبراني ما حقيقتكما قبل أن استدعي قوات أمن النظام ليتم وضعكما في أقفاص مولانا المحبوب للأبد.

- لا.. لا داعي لهذا التهور فسنخبرك بكل شيء، نحن بالفعل سائحان أجنبيان، جئنا لبلادكم العامرة كي...

يقاطعهما الرجل بضحكة ساخرة شامتة ويتقافز وهو يهرش كالقرد الملسوع بما يعني أنه ظفر بما يدينهما:

- أنتما غبيان أحمقان حماران، تريدان استحماري.

- نحن نخبرك بالصدق يا سيدي.

- أي صدق يا أولاد ال... وهذي بلاد لا سياحة فيها ولا سائحون.

- نحن سائحان ، ولكن ليس بالمعنى الذي فهمته.

- بأي معنى إذن يا أولاد المرأة الـ..

- نشكرك بشدة لسعة صدرك وعفة لسانك، نحن سائحان فضائيان، جئنا من كوكب بعيد للغاية كي نقوم برحلة إلى بلدكم العظيم هذا، ونريدك دليلاً في رحلتنا، وعندما تنتهى الرحلة فسنعود لكوكبنا ونترك لك زجاجة ماء كاملة إن أردت.

يهرش الرجل مندهشًا:

- كائنات فضائية ! زجاجة ماء كاملة! لكن هيئتكما... أقصد أن الكائنات الفضائية تكون خضراء اللون محمرة العيون أو لها عين واحدة أو عدة عيون وقرون أو... أو... المهم أنها لا تشبهنا، وأنتما مجرد بشريين لا تختلفان عنا في شيء، وهذا يعني أنكما كاذبان، ولابد أن أبلغ عنكما الـ..

- يا سيدي، هذه الكائنات الفضائية كما رأتها أفلام الخيال العلمى وكما تخيلها كتاب الروايات، معظمهم افترض أنها كائنات مختلفة تمامًا، وبالتالي حاولوا تصوير هذا الاختلاف كلٌ حسب خياله، ونسوا أن العلماء يؤكدون وجود مئات الآلاف من الكواكب تتشابه ظروفها تمامًا مع هذا الكوكب في مجرة درب التبانة وحدها، وكوكبكم هذا صورة أخرى مماثلة تمامًا لكوكبنا. صرخ الرجل ساخطًا ثم عاد فتنحنح

مواصلاً هرشه وعيناه تلتهمان زجاجة الماء بجشع متسائلاً:

- سأفترض أنكما صادقان رغم يقيني بكذبكما، ولكن ما المطلوب مني بالضبط ؟!

أسرعا بإخفاء زجاجة الماء:

- نفس المطلوب من أي مرشد سياحي يجيد عمله ويحبه ويؤديه بإخلاص وتفانٍ.

- لعنكما الله، لست أريد خطابة، سأؤدي المطلوب كما أراه أنا، وسأبدأ بأن أعلمكما كيف تهرشان هرش أهل هذه البلاد حتى لا يكون من ضمن برنامج الرحلة أن نزور جميعًا أقفاص مولانا المحبوب، ولابد أن أشارككما الاستفادة من قدراتكما الخاصة ككائنات فضائية لها اعتبارها، إن كنتما فضائيان بالفعل، تلك القدرات التى لابد اكتسبتماها من انتقالكما بين الكواكب والنجوم والعوالم المتوازية والفجوات ومثل هذا الكلام الذي استطاع به ناشرو الروايات ومنتجو أفلام الخيال العلمي أن يأكلوا عيشًا كثيرًا.

5 - العملة الرسمية

نظر الدليل إلى صاحبينا باحتقار شديد مشيرًا – من طرف خفي – إلى صورة الزعيم قائلاً:

- نبدأ أولاً – وهذا ضروري ومهم ومؤكد للغاية – بأن تعرفا حضرة صاحب المعالي ، والفخامة، والسمو، والسموق ، والعظمة، المحبوب الأوحد، والفيلسوف الأوحد، والنجم الأوحد، والحكيم الأعظم، أب البلاد، سيادة الوصي.

- سيادة الماذا ؟!

استشاط الدليل غضبًا:

- هل أصابكما الصمم! أقول سيادة الوصي.

- إذن فهو ليس سيادة الرئيس أو جلالة الملك أو فخامة الـ...

زفر الدليل بعنف:

- قلنا سيادة الوصي.

- حسنًا حسنًا يا دليلنا الهمام، وماذا عن هؤلاء ؟!

التفت الدليل إلى المعركة التي اشتد آوارها قائلاً وهو يهرش:

- هؤلاء بعض المواطنين يصرفون التموين الشهري من الماء؛ فالماء – كما لا تعرفان – سر الحياة ، وهذه المعركة – في حد ذاتها – من دلائل الحكمة البالغة لسيادة الوصي.

- كيف ؟!

عاد الدليل ينظر للمعركة التي حمي وطيسها قائلاً كأنه يكرر نصًا محفوظًا:

- في قديم الزمان، كان الحاقدون على البلاد، الإرهابيون،الخونة، الفسقة، الفجرة، أولاد الـ... يقولون إن الدعم المائي لا يصل إلى مستحقيه، وهذا محض افتراء رهيب وجهل جهول؛ فدعم الماء يصل – بمنتهى الدقة – إلى من يستحقونه، لا إلى كل مَنْ هب ودب، فمن لديه القوة والعنفوان والقدرة على الحرب يستطيع الحصول على حقه من الدعم، أما هؤلاء الغوغاء الرعاع الذين يسقطون صرعى في المعركة فهؤلاء استطاع مولانا الوصي العظيم أن يبتكر لهم دورًا يخدمون به الوطن.

- يؤدون دورًا بموتهم ؟!

زمجر الدليل مجيبًا:

- نعم.

أوشكت المعركة أن تنتهي، ووصل رجال الشرطة ورجال الإسعاف فأحاطوا بالمعركة يراقبونها بهدوء شديد، يتأكدون إلا أحداً قد استطاع الهرب وألا تجاوزات هناك.

- أخبرنا يا حضرة الدليل، ما المقصود بالتجاوزات التي يعمل رجال شرطتكم البواسل على ألا تحدث ؟!

ضحك الدليل ساخرًا وهو يهرش:

- أنتما معذوران لجهلكما، يحرص رجال الشرطة الأبطال ألا يفقأ أحد عين أحد أو يفسد شبكية عينيه أو قرنيتيه، أو يفسد الكلى أو يصيب قلبه أو يخرق أمعاءه الغليظة أو... أو...

- ولكن يا حضرة الدليل...

يقاطعهما الدليل بغضب:

- قبحكما الله، أعرف ما ستسألان عنه، المطلوب في هذه المعارك أن يموت الشخص ولكن تظل أعضاؤه سليمة تمامًا.

صمت صاحبانا في انتظار مزيد من التوضيح غير أن الدليل صمت مكتفيًا بمراقبة رجال الشرطة والإسعاف وهم يؤدون عملهم بنشاط.

- إذن كيف يتمكن المواطن الصالح من قتل مواطنه دون أن يصيب أيًا من أعضائه، وما الحكمة من .....

صرخ الدليل ساخطًا:

- دائماً متعجلان أحمقان، بإمكان كل مواطن قتل أي مواطن آخر بأن يصيبه في رأسه ، وبالتحديد منطقة المخ، فلو أصاب المخ إصابة مباشرة (كما تفعل الرصاصة مثلاً) فسيموت صاحبنا وتبقى أعضاؤه سليمة؛ فكل الأعضاء مطلوبة فيما عدا المخ.

- وماذا تفعلون بالإنسان بعد موته؟! أي كيف يخدم وطنه بجثته؟!

عاد الدليل يزفر هارشًا بشدة:

- الإنسان إذا كان حيًا سليمًا، أي (كله على بعضه) إذا بيع فلن يساوي شيئًا، فنحن بلد – والحمد لله – لا رقيق عندنا ولا استعباد

للإنسان، ولكن إذا مات فإن قرنية عينه تباع بسعر كبير، وكذلك الكلى والكبد والطحال والأمعاء و.. و..

أي بالجملة لا يساوي فلسًا؛ ولكن بالتجزئة يصبح له ثمن وسعر وقيمة، فالدولة تفضل تفكيك المواطنين وبيعهم كقطع غيار.

شهق صاحبنا وذهنه شهقة عالية و...

احمرت عينا الدليل غضبًا وتطاير منهما لهب ساخط:

- لا دهشة هنا أيها الأحمقان ، هل تريدان أن توديا بنا إلى أقفاص مولانا المحبوب ؟!

استطاع صاحبنا وذهنه أن يلملما شعورهما ووعدا الدليل بأن يضبطا انفعالهما، ورجواه أن يغفر لهما دهشتهما فهما غريبان.

تنهد الدليل هارشًا بما يعني أنه غفر لهما ثم أومأ برأسه قائلاً:

- هيا، أحرقكم الله.

- إلى أين يا حضرة الدليل الحكيم ؟

أجاب الدليل وهو يهرش ناظرًا إليهما بحقد:

- لولا زجاجة الماء التي معكما لما اضطررت إلى الصبر عليكما والإجابة عن أسئلتكم السخيفة هذه.

- لا تغضب يا دليلنا الهمام ؛ فهذا اتفاقنا، وأنت صبور حليم بالفعل.

غمغم الدليل راضيًا:

- أعرف أنني صبور حليم ولكنكما أولاد... ، سآخذكما الآن إلى مبنى "فلسفة الحياة".

- مهلاً يا حضرة الدليل، ألم تقل لنا إن الفيلسوف الأوحد هو سيادة ال... ال...

أدركهما الدليل هاتفًا:

- سيادة الوصي، قبحكما الله، حذاري من أدنى خطأ في هذا الشأن وإلا قضينا أعمارنا كلها في الأقفاص.

- حسنًا، سنحاول ألا نخطئ، ولكن ما "فلسفة الحياة" عندكم ؟

ضحك الدليل مغيظًا:

- عندما نصل ستعرفان ما تريدان معرفته و.....

وفجأة صرخ فيهما كإعصار مكتوم:

- اهرشا، اهرشا – كما علمتكما – أيها الغبيان وإلا صار لكما سعرٌ كبيرٌ.

- سمعًا وطاعة يا دليلنا العظيم ، ولكن هرشكم هذا مؤلم للغاية لا نكاد نتحمله.

قال الدليل بلهجة المعلم المفضال:

- هكذا يهرش كل أجرب مخضرم.

- لا بأس فلنتحمل.

- هيا بنا.

مروا بشخصين في حالة عناق حميم تزيد كثيرًا عن اللازم يتبادلان اللكمات والركلات وكلاهما يهدد الآخر برفع سعره وعلو قيمته، والناس يمرون بجوارهما دون أن تلفت نظرهم حرارة العناق ولا اللكمات والركلات ولا الدماء الكثيرة المنبثقة عن هذه

العواطف الجياشة، وغير بعيد عامل نظافة يمتشق مكنسته يزيح بها أكوام الأوراق المالية وهو يرغي ويزيد ساخطًا على هؤلاء الذين لازالوا يحتفظون بمثل هذه الأوراق التافهة ولم يفكروا في التخلص منها إلا الآن.

- أخبرنا يا حضرة الدليل عن هذه القمامة التي تغضب عمال النظافة إلى هذا الحد.

ضحك الدليل مشيحًا بيد وهارشًا باليد الأخرى:

- هذا أمر قديم ؛ فمنذ سنوات طويلة للغاية (راح يتلفت حوله مؤكدًا على طوال السنوات) كان الناس يهتمون بهذه القمامة اهتمامًا عظيمًا، كانوا يطلقون عليها لفظًا غريبًا (الفلوس) أو لفظًا آخر (الأموال) وكانوا يدللونها بكثير من المسميات والأوصاف، وكانت محور حياتهم ومنتهى أملهم ، وكانوا يتصارعون من أجلها ويقاتلون بعضهم بغباء شديد إكرامًا لها، يتخاصمون عليها ويتصالحون بها، وكانت كل تعاملاتهم بينهم وبين بعضهم وبينهم وبين البلاد الأخرى تتم بها، كانت عصب حياتهم هذه القمامة.

- آوه ! يا حضرة الدليل، هذا شأن المال في كل زمان ومكان.

هرش الدليل بكلتا يديه بغيظ شديد وأسنانه تصطك سخطًا:

- آه ! آه ! لولا الزجاجة الحبيبة التي معكم !

- آه ! نسينا، لا تغضب منا يا دليلنا المحبوب، أكمل حديثك الحكيم، إنك تلقي بجواهر ودررًا لم نسمع بها في الأولين ولا الآخرين.

زفر الدليل هاتفًا بغيظ :

- أف منكما ! لست أدري إلى أي حد سأستطيع تحمل سخافتكما وغباءكما لكن لا بأس، توالت على بلادنا الغالية أنظمة حكم متعاقبة تألقت وتميزت وأبدعت في الفشل واللصوصية (اللهم ارفع شأن مولانا الوصي) وزادت الأسعار بمعدلات أزفت لها الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة، وتضخم التضخم وتعملق كل ثانية، وشح كل شيء ، والقيمة الشرائية للأموال تتهاوى إلى أسفل دركات جهنم حتى قرر الناس أن يكفوا عن التعامل بالمال، وعادوا إلى نظام كان يستخدم في عصور وأزمان ما قبل اختراع العملة وسك النقود.

- نظام المقايضة ، سلعة مقابل سلعة.

هرش الدليل مستحسنًا:

- لم تأت المقايضة بين ليلة وضحاها، وإنما بتدرج بطيء، وبمرور الوقت حلت المقايضة محل التعامل النقدي بشكل كامل ، ولم يعد أحد – في هذه البلاد - يتعامل بالنقد، ولم تعد البلاد الأخرى تقبل عملة بلادنا، وصارت النقود بلا قيمة بالمعنى الحرفي للكلمة ، وبدأ البعض يتخلص من نقوده بإلقائها في القمامة، إلا أن البعض الآخر لم يستوعب الأمر – رغم تدرجه – فمن عاش عمره وورث من خبرة أجداده أن يدخر العملات الورقية والمعدنية ويتعامل بها ويراها هواءه الذي يتنفسه لم يتقبل بسهولة فكرة الاستغناء عن النقود ، وأصيب البعض بصدمات عصبية وعدم تصديق وإنكار نفسي للأمر، وكنت تجد الرجل يمسك بالرزم فيبعثرها في الشارع فيسرع البعض بجمعها غير مصدقين أنها مجرد قمامة، وبدأ البعض يستوعب ويتقبل الأمر بعد أن حمل هذه النقود – مرات – إلى المحال التجارية والمصالح الحكومية والخاصة فيقابل بالهزء والسخرية والسخط والتهديد فيعود إلى بيته فيتخلص مما عنده، وألقيت في القمامة مليارات

ومليارات من العملات والجميع يتعجب من الجميع، فكيف كانوا يتشكون ويصرخون من الفقر والعوز وهم يملكون كل هذا، وأغلقت البنوك أبوابها بعد أن تخلصت مما لديها.

- وبالطبع كان هذا عبئًا على عمال النظافة.

هرش الدليل بعنف:

- أتعرفان أيها الوغدان، رغم ضيقي منكما ورغبتي الجارفة في رميكما في أقفاص مولانا الوصي، وأن موافقتي على مرافقتكما كانت من أجل الزجاجة إلا أنني أجد متعة في الحديث، أنا أتكلم وأتكلم وأنتما تسمعان، فنحن قوم لا نسمع بعضنا، ولا طاقة لنا – على الإطلاق – بأن يسمع أحدنا من الآخر جملتين كاملتين، لذا فإنني عندما أحدثكما حاولا ألا تقاطعاني.

- هل يعني هذا يا دليلنا العظيم أنك مستعد للتنازل عن الزجاجة مقابل هذه المتعة ؟!

زمجر الدليل، ولمعت عيناه، وكشر عن أنيابه، وصرخ عاويًا كذئب جريح:

- بل يعني أنني سألقيكما الآن في أقفاص الوصي.

- هاها.. لا تغضب أيها الدليل الحليم، نحن نمزح معك فقط.

- مزاحكما قبيح.. مزاحكما قبيح.. مزاحكما قبيح.

- حسنًا حسنًا، لا تغضب، لن نمزح مرة أخرى، نحن آسفان، نحن مخطئان، والآن أكمل حديثك الرائع المسلي الحكيم ال.. ال...

عادل الدليل يزمجر دون حديث فقالا له:

- إكرامًا لمولاك الوصي، أكمل حديثك.

راح الدليل يهتف بحماس حنجوري وهرش مجنون:

- بالروح بالماء نفدي مولانا الوصي، بالروح بالماء نفدي مولانا الوصى، بالروح بالماء نفدي مولانا الوصي، بالروح.....

أخذ يكرر الهتاف بهستيريا عجيبة حتى فكر صاحبانا في الهرب منه إلا أنهما تراجعا عن هذه الفكرة لأنهما لا يضمنان أن يجدا دليلاً كهذا مرة أخرى، وهدأ الدليل أخيرًا وانتظمت أنفاسه وراح يحكي:

- كان الأمر بالفعل عبئًا على عمال النظافة الذين اقتصر دورهم (أو كاد) على جمع هذه القمامة ونقلها إلى أماكن بعيدة لحرقها، وكلما ظن الناسُ أن الناسَ قد شفوا تمامًا من أمر هذه النقود (القمامة) يفاجئوا بها – بين وقت وآخر – ملقاة في الشوارع.

- وهل لازلتم تتعاملون بالمقايضة ؟

سعل الدليل مرتبكاً وهرش بعنف:

- لا.. لا.. التعامل أصبح بعد ذلك بالماء، العملة الرسمية زجاجات الماء العذب مثل التي كان الناس يتناحرون عليها منذ قليل، والزجاجات لها أحجام مختلفة، أكبرها الزجاجة اللتر، وأصغرها زجاجات تحوي الواحدة قطرة أو قطرتين، أي أن الزجاجة التي معكما تعد كنزًا كبيرًا لذا فأنا مضطر لتحملكما.

- ولماذا لم يستمر التعامل بالمقايضة ؟!

أسرع الدليل يهرش بحماس مهيب مجيبًا:

- المقايضة نظام متخلف، نظام غير عملي، نظام قبيح، نظام إرهابي ، نظام قديم، نظام يفيد أعداء الوطن، نظام يهدد أمن البلاد، نظام كرهه الشعب، نظام ...

- إذن فمن ألغاه هو فخامة الوصي.

هرش الدليل في رأسه ضاحكًا بغباء حقيقي أو مصطنع قائلاً:

- لولا أننا لا نندهش لاندهشت من معرفتكما لهذه المعلومة، فمن أخبركما بها قاتلكما الله؟!

- لا عليك يا دليلنا العظيم، لكن أخبرنا عن سبب ندرة الماء لديكم هكذا ؟! ألا يمكنكم الحصول عليه من الأمطار أو الآبار أو العيون أو تحلية مياه البحار؟!

لقد ذكر علماء الجيولوجيا أن الله (سبحانه وتعالى) قد خلق كميات هائلة من الماء العذب تكفي جميع البشر عدة مرات، لكن البشر لا يحسنون توزيعها ولا استغلالها. تقافز الدليل وهو يهرش في ظهره محاولاً الوصول بأظافره إلى منطقة بعيدة يأكلها الجرب في ظهره هاتفاً بغيظ:

- أيها الأحمقان، أيها الأجربان، أعرف أن نهايتي ستكون على يديكما، ولكن زجاجة الماء الملعونة التي معكم أيها ال.....

- ماذا أغضبك مرة أخرى يا دليلنا العظيم ؟!

زفر الدليل بضيق شديد:

- لفظة "العلماء" هذه من الكلمات المحرمة هنا، فلا تكرراها مرة أخرى، لقد نطقتماها للمرة الثانية.

- حسنًا، لن نكررها فلا تغضب، لكن لماذا هي محرمة ؟!

عاد الدليل يزفر وصوت أنفاسه يعلو بانفعاله الشديد:

- محرمة لأنها.. لأنها محرمة.

- عرفنا أنها محرمة لكن لماذا ؟!

قال الدليل بغيظ:

- كنت أنوي الذهاب بكما إلى مبنى "فلسفة الحياة" أليس كذلك؟!

- بلى.

- حسناً، هيا بنا.

- هل نعتبر هذا هروبًا من السؤال ؟!

سعل الدليل سعالاً مصطنعًا ثم قال:

- هل يمكنكما الهرب بنا من أي مكان دون أن يتعرفنا أحد ؟!

- بسهولة ، لقد فعلناها.

نظر الدليل للأفق وهو يهرش:

- إذن لن أهرب من أي سؤال، ولكن هيا إلى "فلسفة الحياة".

6 - فلسفة الحياة

"مرحبًا بكم في فلسفة الحياة".

قال الدليل بحماس شديد:

- المبنى ينقسم إلى عدة أقسام، أولها الاستقبال، حيث يتم تصنيف الحالة وتوزيعها على القسم المناسب، وهناك قسم الولادة، وقسم الرحمة، ثم بقية الأقسام، وهي عبارة عن مشارح بعدد أعضاء جسم الإنسان؛ فكل عضو له مشرحة خاصة به، انظرا، هذه مشرحة القلب، بجانبها مشرحة الكلى، وهناك مشرحة الـ..

- هذه مستشفى إذن يا حضرة الدليل.

أصدر الدليل صوتًا معترضًا وسبة فظيعة ثم قال:

- هذا ليس "مستشفى"، وهذا اللفظ لا مكان له في بلادنا على الإطلاق.

- إذن كيف تداوون مرضاكم ؟!

ابتسم الدليل بحكمة:

- قسم الرحمة هو المسئول عن أي شكاوى صحية.

- هل ما نتوقعه صحيح ؟!

أطلق الدليل ضحكة وقورة :

- نعم صحيح تمامًا، فهذا القسم مسئول عن تخليص الإنسان من آلامه وأوجاعه ومعاناته، الرحمة حلم كل موجوع، ونحن نرحم المرضى ونرفع قيمتهم بأسلوب غاية في الرقي والتحضر فلا يشعر المريض بأدنى ألم.

- .....

هتف الدليل غاضبًا.

- اتفقنا ألا دهشة أيها الأوغاد.

- نفس نظرية خيل الحكومة.

ضحك الدليل بجزل ساخر:

- نحن لا ننتظر حتى يصل المريض لمرحلة أن يكون خيل حكومة.

- هل تقصد أن الإصابة بنوبة برد أو صداع أو التواء بالكاحل أو جرح قطعي أو دمل في القفا أو .....

أطلق الدليل صوتًا قبيحًا يدل على الاعتراض:

- وهل هذه أمراض سهلة ؟!

- هكذا فإن أطباء قسم الرحمة يعانون من البطالة.

- يساعدون الآخرين.

- فقط !

اتخذ الدليل سمت الحكيم:

- جسد الإنسان يملك طاقات هائلة وقوى قد لا يعلم صاحبه عنها شيئًا، منها قدرته على مقاومة الأمراض، ولذا فإن مولانا الوصي – رفع

الله شأنه وأطال عهده – يستنفر أجساد المواطنين، يستفزها، يقدح شرارها كي تبدع في استجابتها لنداء الطبيعة، فبالعودة إلى الطبيعة (أمنا الحانية) يشفى الإنسان من أمراضه ذاتيًا، وتقوى أجهزة جسمه المناعية وتكتسب قدرات خرافية دون أدنى حاجة لأي أدوية أو عقاقير، وبذلك استطعنا الاستغناء تمامًا عن شيء قبيح كانوا يطلقون عليه علم "الفارماكولوجى".

- أي أن بلادكم تخلو من الصيدليات.

تخلى الدليل عن سمت الحكيم وركبه الحماس:

- انظرا إلى الجدوى الاقتصادية الهائلة نتيجة هذا الاستغناء عن كل الأدوية ، وانظر أيضًا إلى جدواه ال... ال...

- الماذا أيها الدليل ؟!

تنحنح الدليل حائرًا في اختيار الكلمة المناسبة وسرعان ما وجد مخرجًا فتدفق قائلاً بحماس:

- هذا الاستغناء لا يجعلنا نقع تحت طائلة الدول الأجنبية، فكلما قل احتياجك صار بإمكانك أن تشمخ بأنفك..

هكذا قال وخطط سيادة الوصي أطال الله عمره.

صمت الدليل لحظة ثم عاد ينظر باحتقار إلى صاحبيه:

- هيا بنا إلى قسم الولادة.

- ولماذا لا تكون الولادة أيضًا دون أدوية أو أطباء وممرضات ؟!

انتفخت أوداج الدليل وهو يقول مشيرًا بإصبعه دون أن يتخلى عن الهرش المحموم:

- لا.. إلا الولادة، الدولة – أعلى الله مراتبها وأطال بقاء مولانا الوصى – تولى الولادة رعاية فائقة واهتمامًا بالغًا، وكما تلاحظان، فإن هذا القسم كبير للغاية، وينقسم إلى عدة عنابر، عنبر للولادة الطبيعية، وعنبر لأطفال الأنابيب، والأهم عنبر الاستنساخ وعنبر الأرحام الصناعية.

- استنساخ وأرحام صناعية ؟! ألا يبدو في هذا ...

قاطعهما الدليل بضيق شديد:

- لا تعليق، ولا دهشة أيها الأحمقان، وسأفسر لكما ما تريدان.

- نحن بانتظار تفسيراتك وفلسفة وصيكم يا دليلنا العزيز.

تنحنح الدليل متخذًا وضع الحكيم النابه:

- يؤكد مولانا الوصي أن البشر في بلادنا هم ثروتها الحقيقية ؛ فهم عماد الاقتصاد بها؛ لذا فلابد من الإكثار منهم بأي طريقة، ومن ثم فإن التفريخ والتلقيح وال....

- التفريخ مطلوب لإحداث التوازن مع جهود قسم الرحمة ومعارك التموين الشهري و.....

جحظت عينا الدليل بالغضب وراح يجذب شعره صارخًا:

- لا تقاطعاني أيها الوغدان الأحمقان، لا تقاطعاني.

- .....

- لا بأس ولكنكما تستحقان رفع قيمتكما أو الأقفاص، هيا إلى المشرحة، وهذا هو القسم الأكبر في أي مؤسسة "فلسفة الحياة"، نحن الآن في عنبر الكلى،حيث تأتي الكلى من قسم الرحمة أو الاستقبال فيتم

تصنيفها ومعالجتها وحفظها وإعدادها للتصدير للخارج - بكميات ضخمة – وهكذا يتم في بقية العنابر مع بقية الأعضاء.

ظهر الفخر على ملامح الدليل وانتفخت أوداجه وهو يستطرد:

- نحن نصدر إنتاجنا من الأعضاء البشرية إلى معظم دول العالم، فهذه الأعضاء هي المصدر الرئيس لدخلنا القومي.

- لم يتمالك صاحبانا أعصابهما فارتبكت معدة كل منهما بشدة وأفرغت ما فيها بصوت يذكرك بالسيدة التي تحاول إغاظة حماتها بحملها وتحاول إعلام الجيران وجيران الجيران بالحدث السعيد.

ولكن الأمر هنا لم يكن سعيدًا –بالنسبة لهما ولدليلهما– على الإطلاق إذ سرعان ما وجدوا أنفسهم وسط دائرة من البشر الغلاظ الشداد مفتولي العضلات من ذلك النوع الذي يعمل كحرس خاص (بودي جارد) في الأفلام، وعيونهم تلمع بلذة الافتراس وقد هتف أحدهم بجزل:

- مرضي.. مرضي.. خذوهم إلى قسم الرحمة.

صرخ الدليل مستغيثًا بغضب قاصف ورعب رهيب:

- قدراتكما الفضائية أيها الوغدان.

اختفى ثلاثتهم في الحال ثم وجدوا أنفسهم يسيرون في شارع كبير بمدينة أخرى والدليل يقول بفرحة:

- لقد نجونا، لم أكن أثق مطلقًا في قدرتكما الفضائية هذه ولكن الله سلَّم.

- لا تقلق يا دليلنا العزيز؛ فنحن كائنان فضائيان من النوع الأصلى وليس من النوع الصيني أو التايواني، ولكن أخبرنا، لماذا تطلقون على هذا المبنى الرهيب اسم "فلسفة الحياة" ؟!

اتخذ الدليل سمت الحكيم:

- يقول مولانا الوصي (الفيلسوف الأوحد) "إن الحياة هي تلك المسافة بين حجرة الولادة وحوش القرافة" وحوش القرافة هنا هو قسم المشرحة، وتلك فلسفة حياتنا.

- على رسلك يا دليلنا الهمام، هذه العبارة قالها كاتب ساخر لدينا يدعى محمد عفيفي.

هرش الدليل بعنف شديد وصرخ وعيناه تجحظان بشكل عجيب:

- أيها الكاذبان، أيها الحقيران، ساخركم هذا سرق عبارة سيادة الوصي؛ فهو الفيلسوف الوحيد، والحكيم الوحيد، والعالم الوحيد، والمفكر الوحيد.

7 - في بيت الدليل

قال الدليل هارشًا في رأسه:

- أنا جائع.

- هيا الى أقرب مطعم.

رد الدليل بقرف:

- لا مطاعم لدينا.

- إذن هيا إلى بيتك، سنأكل هناك ، الأكل المنزلي أفضل بالتأكيد.

انفجر الدليل بغضب عارم :

- سآكل في منزلي بصيغة المفرد الحبيب، لا صيغة الجمع السخيفة هذه.

- أنت كريم للغاية.

ابتسم الدليل راضيًا ، وتوجه الجميع إلى البيت، شيء ما بين العشة والقبر، منخفض السطح الذي يتدلى منه مصباح كهربي مسكين لعله أول مصباح اخترعه أديسون، يحيط به العنكبوت، وحفرة مستطيلة الشكل بطول شخص نائم وكيس من البلاستيك

متكوم فوق الحفرة، وبجانب الحفرة المستطيلة كومة كبيرة من التراب، صندوق حديدي مدفون في الأرض لا يظهر منه إلا قفل ضخم، وفي صدارة المكان تليفزيون، وفوق التليفزيون صورة ضخمة للوصي تبتلع الحائط كله تقريبًا.

انحنى الدليل بشكل مسرحي قائلاً بمرح:

- أهلاً بكما في منزلي الفخم.

أسرع فأشعل شمعة أضفت ظلالاً زادت من كآبة المكان، ونظر لضيفيه متسائلاً:

- هل يستطيع كل منكما أن يرى أمامه وأن يحدد تضاريس المكان؟

- هاها.. هاها.. تضاريس! أنت خفيف الظل يا دليلنا الجميل.

زفر الدليل بعصبية:

- أجيبا بسرعة.

- نعم.. نعم.. نستطيع.

أسرع الدليل فأطفأ الشمعة قائلاً بارتياح :

- ستتعود عيونكما جو المنزل دون حاجة لهذه الشمعة .

- لكن يا حضرة الدليل...

قاطعهما هاتفًا:

- لكن ماذا ؟!

- جميل ورائع وممتع يا دليلنا أن في منزلك العامر كهرباء بدليل وجود التليفزيون والمصباح.

قال الدليل بحماس شديد:

- نعم لدينا كهرباء، فنحن دولة متقدمة للغاية ، تنتج الكهرباء من طاقة الشمس وطاقة الرياح، ومحطات الكهرباء منتشرة حتى أنك تعتقد أن بين كل محطة كهرباء ومحطة كهرباء محطة كهرباء.

- لماذا إذن أشعلت الشمعة ؟!

أجاب الدليل هادئًا:

- لأن الكهرباء لا تأتي إلا مرتين كل عام، يوم خطاب فخامة مولانا الوصي ويوم المباراة.

- لماذا إذن أطفأت الشمعة ؟!

ضحك الدليل مجيبًا وهو ينوي تمزيق جسده هرشًا:

- ترشيدًا للاستهلاك.

- لماذا أشعلت الشمعة أصلاً ؟!

أجاب الدليل بحكمة هادئة:

- ترحيباً بكما، فأنتما – قاتلكما الله - ضيفان تدخلان منزلي الفخيم لأول مرة.

- شكرًا لك يا دليلنا الكريم، هل معنى هذا أنك تراجعت عن قرارك الأول، ونويت أن تدعونا لنشاركك الطعام ؟!

صرخ الدليل ضاربًا صدره بيديه:

- لا أيها اللصان، أنتما لصان، أنتما لص00000

- نحن آسفان آسفان، ولن نأكل معك فاطمئن.

هدأ الدليل واقترب من الصندوق الحديدى، وظل يتلفت حوله بحذر شديد، وينظر لضيفيه باتهام ثم أخرج مفتاحًا سرعان ما دسه في القفل ملتفتا إلى ضيفيه بنفس نظرة الاتهام:

- أغمضا عيونكما.

- حاضر.

- أغمضا عيونكما وحذاري من الخيانة.

- اطمئن.

عاد الدليل فأخرج المفتاح وعاد للتلفت، ورفع باب الصندوق المدفون مخرجًا علبة صغيرة، وعاد فأغلقه وراح ينظر للعلبة باستمتاع ثم فتحها بهدوء فإذا بها شيء يشبه المعجون أو البلسم، وسرعان ما راح يلتهم هذا المعجون بشراهة بطريقة أثارت تقزز ضيفيه تقززًا مريعًا حتى كاد أحدهما أن يفرغ معدته للمرة الثانية في هذه الرواية، وحاولا تعطيله عن افتراس العلبة فسألاه:

- أين أسرتك يا حضرة الدليل ؟!

كانا واثقين أنه لن يعيرهما اهتمامًا حتى ينتهي من علبته ثم ينثني فيأكلهما أنفسهما إلا أنهما فوجئا به يتخلى عن علبة طعامه وينتفض منتصبًا يهتف كمن يترافع في محكمة كل من فيها يعاني من الصمم:

- أنا لست متزوجًا ولا أسرة لي لكنني حريص تمامًا أن أزور دار "فلسفة الحياة" في الموعد الرسمي كل أسبوع (حيث قسم الولادة) لأسلمهم عينة من ال00 ال00 من الإنتاج الذكوري الطبيعي الذي يمثل الشق الأول من المادة الخام التي تعمل بها الأرحام الصناعية لكي تستمر مسيرة الإنتاج والنهضة والتقدم في وطننا الغالى.

- ولمن ينسب أبناء الأرحام الصناعية ؟!

أجاب الدليل عائدًا إلى علبة طعامه:

- هؤلاء أبناء الدولة.

انتهى من طعامه فأسرع بإخفاء العلبة الفارغة في الصندوق ثم أغلقه بإحكام مخفيًا المفتاح، ثم دار حول نفسه وهو يهرش ثم يفرك كفيه ويعود يهرش ناظرًا بضراعة إلى ضيفيه حتى سألاه أن كان يريد شيئًا فابتسم بود قائلا برقة مصطنعة:

- لقد خدمتكما بإخلاص منذ التقيت بكما (في هذه الرواية الشنيعة) ومن حقي جزء من الأجر.

- سنعطيك ما تريد جزاء هذا الود الذي لم نره منذ أن وطأ ذهننا بلادكم العامرة، رغم أن الاتفاق ألا تنال شيئًا إلا بنهاية الرحلة المجيدة ، هيا أخرج لسانك.

نال الدليل قطرتين من الماء فبدا سعيدًا مرتويًا وأخذ يتقافز هارشًا مغنيًا:

المية تروي العطشان

وتطفي نار الجربان

- أخبرنا يا حضرة الدليل، ماذا لو أن أحدكم (بشكل ما) شرب زجاجة كاملة كهذه دفعة واحدة.

هتف الدليل هارشًا بشدة:

- يا إلهي! لكأن أحدكم فوجئ بأنه قد فاز برحلة لمدة أسبوع كامل يقضية على سواحل الريفيرا بصحبة حسناوات هوليود بإمكانيات بيل جيتس.

- ما الذي جعل أجسادكم كهذا ؟!

أجاب الدليل متخذًا سمت الحكيم:

- سيادة معالي الوصي اكتشف أن في جسد الإنسان قدرات مهولة، تفوق الخيال بمراحل متعددة، هل تعرفان الفقير الهندي الذي يستطيع أن يعيش لعدة أيام تحت الماء، والذي يرقد ويرتفع جسده عن الأرض في تحد سافر لقانون الجاذبية الأرضية، والذي يستطيع أن يعيش شهوراً بلا ماء؟!

- هذه قدرات خاصة جدًا لا يصلون إليها بسهولة، وإنما بعد مرنة وتدريبات ومعاشرة طويلة لرهبان التبت وربما لا يعدو الأمر أن يكون مجرد خداع ،فالأمر محل جدل و.....

قاطعهما الدليل ولازال متخذًا سمت الحكيم:

- جسد الإنسان إذا وضع في مواقف معينة تظهر مثل هذه القدرات، فمثلاً عندما ينهار عقار على من فيه – كما يحدث في بلادكم كل يوم – وتمر أيام طويلة يستخرجون بعدها الجثث يفاجئون بوجود أحياء استطاعوا التكيف مع الظروف الجديدة، وحدثت في أجسادهم تغيرات لتلائم الوضع الجديد، وهناك نباتات تستطيع الحياة في الصحراء القاحلة، فالله (سبحانه وتعالى) يزودها بقدرات خاصة تساعدها على هذه الحياة، والأمر في بلادنا يشبه مثل هذه الأمور، فأجسادنا صارت تمتلك مثل هذه القدرات نتيجة التغيرات الحادثة فيها، فترانا – مثلاً – لا نفرز عرقًا – كما تفعلون – كي تحافظ الأجسام على نسبة الماء بها.

- وبالتأكيد قد ضعف وضمر جهازكم البولى فلم يعد يعمل.

قال الدليل هادئًا:

- هذا صحيح إلى حد ما.

كيف تتخلص أجسادكم من النفايات والسموم والأملاح الزائدة التى كان يحملها البول ؟!

أجاب الدليل كأنه معلم ابتدائي في حصة العلوم:

- الجهاز الهضمي يقوم بالمهمة.

- لكنكم تصدرون الكلى إلى الخارج.

رد الدليل ولازال في حصة العلوم :

- الكليتان تقومان بعملهما حسب الظروف الجديدة مع بعض التعديلات والتبديلات، وعندما تنتقل إلى جسم يحيا في ظروف مختلفة عما نحن فيه فإنهما تعملان بشكل طبيعي.

- وما هذا الطعام الذي تناولته منذ قليل ؟!

تنحنح الدليل بحذر وقد عاوده الغضب:

- قلت لكما: لا طعام لكما، إنه طعامي وحدي.

- لن نأخذ منك شيئًا، فنحن متقززان من طعامك هذا ومن طريقتك في تناوله، نحن نسأل عن ماهيته.

عاد للدليل اطمئنانه فقال بمرح:

- فلتعذراني، فإن هذا الطعام يصرف كتموين شهري، فالمواطن يحصل على ثلاثين علبة كل شهر، وفي نهاية الشهر يعيد الفوارغ للدولة ليحصل على العلب الجديدة، ومعها أيضًا شمعة واحدة.

- وهل هذه العلب تصل لمستحقيها فقط كزجاجات الماء ؟!

اندفع الدليل يرد بحماس:

- لا..لا.. العلب الثلاثون يحصل عليها كل مواطن، كل مواطن، وهذا بالطبع بفضل فخامة سيادة الوصي.

- وكيف تصنعون هذا الطعام العجيب ؟!

أجاب الدليل متفاخرًا:

- نستورده بفضل سيادة الوصي.

- ومن أين تأتون بال... نقصد من أين يأتي لكم سيادة الوصي بالماء ؟!

زاد فخر الدليل وانتفاخ أوداجه وهو يجيب:

- يستورده لنا.

- ألا يمكنكم استغلال المياه الجوفية أو تحلية مياه البحار ؟!

هرش الدليل ضاحكًا:

- هذا ممنوع تمامًا، لأن هذا الحق محفوظ لشركة أجنبية تستخرج الماء وتبيعه لنا، ولو حاولنا تحلية مياه بحارنا فإن هذه الشركة ستلجأ للتحكيم الدولي، ونحن عاطفيون للغاية، تغلبنا عواطفنا ويهزمنا الحنان أمام أي قضية مرتبطة بالتحكيم الدولي.

- ولكن يا حضرة الدليل العليم، ألم يكن في هذه البلاد نهر كبير؟!

يزفر الدليل هارشًا بضيق شديد معترضاً:

- يا فتاح يا عليم ، كان يا سيدي ، كان.

- أين هو ؟!

- لم يعد يأتي.

- لماذا ؟!

- هذا تاريخ قديم ، قديم للغاية ، قبل أن ينعم الله علينا بالمنقذ مولانا الوصي.

- عرفنا أنه تاريخ قديم، لكنك لم تجب، لِمَ لَمْ يعد النهر يأتي ؟!

تأفف الدليل هارشًا:

- باعوه.

- لمن ؟!

- لكيان لقيط لكنه صديق شقيق، بيننا وبينه غرام وهيام تاريخيين وحوار دموي طويل.

- كان هذا في عصر الأموال، أليس كذلك ؟!

- بلى.

- ماذا فعلوا بالأموال التي باعوا بها ؟!

- ذهبت هذه الأموال لإعادة هيكلة الكيانات المتوازية لا طرديًا مع أيديولوجية بنية العلاقات المتداخلة والمتزامنة في ديناميكية الفكر الحراري المتوائم مع علامات الاستاتيكا المتزلجة فوق حوائط التمركز الحضاري اللاجمعي.

- ما هذا الهراء يا دليلنا العظيم ؟!

هرش الدليل غاضبًا وصاح بعنف:

- هكذا قالوا لنا وقتها.

- واقتنعتم ؟!

هرش الدليل مبتسمًا ابتسامة خجولة:

- أقنعونا.

- كيف ؟!

أشار الدليل إلى التليفزيون متسائلاً:

- ما رأيكما فى الأجهزة الكهربية في منزلي؟!

- ومن لم يقتنع ؟!

راح الدليل يحك ظهره بالحائط بشكل أصدر صوتًا مخيفًا وهو يقول ساخرًا:

- رجال الشرطة والمخابرات لهم وسائل شديدة الإقناع.

- بقي شيء يا دليلنا المحبوب.

كف الدليل عن حك ظهره بالحائط واقترب منهما وهو يهرش بغيظ شديد:

- لا داعي لحكاية "المحبوب" هذه، قبحكما الله؛ فالمحبوب الأوحد في هذه البلاد هو سيادة الوصي.

- حسنًا، بقي شيء يا دليلنا الممقوت.

عاد الدليل ليحك ظهره بالحائط مبتسمًا برضاً:

- ما هو قاتلكما الله ؟!

- المطر.

ضحك الدليل وهو يهرش بيديه ويواصل حك ظهره بالحائط:

- المطر هذا قصته قصة؛ فهناك منظمة إرهابية عالمية عتيدة في عالم الإجرام ولها أذرعها الطولى على مستوى العالم استطاعت أن.....

- استطاعت سرقة كل السحب فى بلادكم ؟!

أجاب الدليل بضيق:

- لا يا ظريف ، فبلاد سيادة الوصى لا يستطيع أحد سرقتها، وإنما استطاعت هذه المنظمة توقيع عقد مع السلطات (قبل بيع النهر) يسمح لها باحتكار حق الانتفاع بماء المطر لمدة مائة وتسع وتسعين سنة.

- ولماذا لم يكملوا المائتين؟! هل خافوا من الضرائب؟!

- زفر الدليل غاضبًا:

- لست أريد استظرافًا.

- حسناً، دعنا من هذا، كيف يسيطرون على ماء المطر في طول البلاد وعرضها؟!

ضحك الدليل مجيبًا:

- لديهم طائرات تقوم برش السحب بمادة لا أدري كنهها تجعل كل السحب تتجمع – بسرعة كبيرة – في منطقة محددة ليسقط المطر كله في المنطقة التي يريدونها حيث خزاناتهم الخاصة المحاطة بحراسات من الحديد والنار.

صمت الدليل لحظات ثم غيَّر نمط الهرش متثائبًا وقال لضيفيه:

- والآن أحتاج للنوم.

- اتجه للحفرة المستطيلة فرقد فيها وغطى نفسه بالكيس البلاستيك، ثم قام بجذعه وراح يجذب من كومة التراب ويجذب حتى غطى بها الكيس، وعاد ليرقد متغطيًا بالكيس المغطى بالتراب الثقيل قائلاً لضيفيه:

- تصبحا على شر!

- كيف سننام نحن ؟!

كشر الدليل صارخًا:

- لا شأن لي بكما، أنتما كائنان فضائيان تستطيعان إدارة شئون أنفسكما بأنفسكما.

8 - مباراة تاريخية

يوم غير عادي، تجمعات بشرية كبيرة في عدة أماكن، والكل يهرش بحماس شديد والمناقشات ساخنة للغاية مرشحة بسهولة لتصير معارك ضارية.

- ما هذا يا حضرة الدليل ؟! أهو احتفال بعيد ما؟!

ضحك الدليل وهو يهرش بحماس لم يره الضيفان منه منذ التقيا به ثم تساءل:

- أيهما تشجعان؟! الأهلى أم الزمالك ؟!

- ماذا ؟! هل أنتم أيضًا لديكم أهلي وزمالك ؟!

هتف الدليل وحماسه يطغى:

- لم يجب أحدكما عن سؤالي!

- يا له من سؤال صعب شديد الإحراج!

- أيهما تشجع أنت يا حضرة الدليل؟

عاد الدليل يهتف وحماسه يتعالى:

- أخبراني أولاً.

- أشعر أننا لو أخبرناه بفريق لا يريده سيسلمنا لجماهير الفريق المضاد.

- لابد أن نتصرف.

- يمكننا أن نقول: إن أحدنا أهلاوي والآخر زملكاوي.

- هذا خطر على أحدنا.

- نحن زمهلاويان يا دليلنا الهمام، وأنت ماذا تشجع ؟!

أجاب الدليل بصوت مرتفع:

- أنا أشجع مانشستر، فالكرة هنا جربانة.

- الكرة فقط ؟!

- ماذا تقصدان ؟!

- نقصد أنك أحسن دليل رأيناه في حياتنا.

تأفف الدليل وهو يرد المجاملة بذوق شديد:

- الله يحرقكم ! والآن هيا إلى المقهى أو الأستاد كي نوقع بالحضور، وكي تلتقطنا الكاميرات ونترك البصمات.

- كل هذا كي نشاهد مباراة يا دليلنا الهمام ؟!

زمجر الدليل غاضبًا:

- هكذا النظام هنا.

- لكن بالتأكيد – بأخلاقكم الفاضلة وتسامحكم المذهل – ستندلع معارك أشنع من حروب العصر الجاهلي، ويمكن أن تعلو قيمتنا في بورصة الأعضاء البشرية.

هرش الدليل بحكمة:

- هذا محتمل، ولكنه مؤكد الحدوث لو تخلفنا عن حضور المباراة في الأستاد أو في أي مقهى.

- هيا إذن كي نحجز مكانًا متميزًا.

أتموا إجراءات الحضور، وكان مكانهم في منطقة وسطى من الكتلة الجماهيرية، والتليفزيون الضخم يعرض عدة إعلانات قبل بدء المباراة.

- إعلان عن "هراشة" الكترونية.. الهراشة الشقية، تساعدك أنت وهي، على الهرش بمنتهى الأريحية.. الهراشة الكهربائية توفر وقتك الثمين وجهدك العظيم.. الهراشة الكهربية تستطيع أن تهرش لك في كل مناطق جسدك خاصة المناطق التي لا تستطيع حوافرك – عفوًا نقصد أظافرك – أن تصل إليها، سارع باقتناء الهراشة الشقية لأن الكمية محدودة، ومَنْ لن يشتري الهراشة الشقية فستكون حياته شقية ونهايته في الأقفاص المحمية.

- إعلان الموت الممتع.. عزيزي المواطن، هل كرهت حياتك؟! هل يؤلم مشاعرك أن تكون رخيصًا بلا ثمن؟! هل تحب مفارقة هذه الحياة الفانية ؟! نحن نوفر لك الموت ليس فقط بدون ألم، وإنما بمتعة لا توصف، متعة خاصة لا يستطيع وصفها حقيقة إلا مَنْ ذاقها، هناك موت بطعم الفواكه المتعددة، وموت بطعم ألذ المشروبات التاريخية، لا أحد يحقق هذا إلا نحن، هيا، نحن بانتظارك كي نرفع قيمتك ونعلي من شأنك، نحن نزفك للجنة.

وهكذا ظلت الإعلانات تتوالى بلا توقف حتى ظهر ملعب المباراة وسط عاصفة من الهرش المتحمس، الأستاد أضخم كثيرًا من أي أستاد يمكن أن تراه في كوكب الأرض، ربما هذا الأستاد أضخم من أستاد القاهرة لعشر مرات على الأقل، الملعب مهول الحجم، وكذلك

المدرجات التي يمكنها أن تسع مليون مشاهد بسهولة، وفوق المدرجات توجد أقفاص حديدية كالمنتشرة على نواصى الشوارع، وأصوات المعذبين فيها تتعالى متنافسة مع هتافات الجماهير، وفوق الجميع صورة ضخمة للوصي تكاد تبتلع الأستاد ومن فيه، دقائق مرت ثم بدأ اللاعبين في دخول الملعب وقد ارتسمت على وجوههم التكشيرات المتوعدة.

- ما هذا يا حضرة الدليل ؟!

- ماذا ؟!

- الفريق الأبيض يتكون من مائة لاعب، وكذلك الفريق الأحمر، أليست هذه مباراة لكرة القدم ؟!

صفق الدليل ثم عاد يهرش بسرعة مجيبًا:

- هذه كرة القدم عندنا.

وعاد يهتف ويهرش وقد انتصب واقفًا مع الواقفين استعدادًا لعزف النشيد الخاص بهؤلاء القوم، وبدأ صوت المعلق الرياضي – الذي لم يذكر شيئًا عن أسماء اللاعبين – ينطلق حنجوريًا في فاصل ضروري من التمجيد والتعظيم والدعاية الفجة والنفاق المفضوح بحق سيادة الوصي، وبعدها بدأ الحديث في المباراة فأخذ يتغزل في الروح الرياضية العالية بين كباتن الفريقين فكل منهما يهرش للآخر مع تبادل الأعلام ويكشر له تكشيرة مهددة:

- سيكون سعركم اليوم غاليًا.

- لن يكون أغلى من سعركم يابن الـ....

وبدأت المباراة وسط حماس من اللاعبين ولهيب من الجمهور، واللاعبون يجرون خلف الكرة وخلف بعضهم، من معه الكرة يعدو خلفه ما يزيد عن خمسين لاعبًا في حين انشغل بقية من في الملعب

بمحاولة تعطيل وعرقلة الخمسين الملتفين حول الكرة، وانفرد أحد اللاعبين بالمرمى فعرقله خمسة من الفريق المدافع وأوسعوه ضربًا بعنف حتى هرش الحكم محتسبًا ضربة جزاء، وأخرج مسدسًا ليزريًا أصفر اللون، صوبه نحو اللاعبين الخمسة وأطلق أشعة الليزر القاتلة نحو رءوسهم حتى أرداهم قتلى، وعلى الفور دخلت سيارات الإسعاف تحمل الجثث إلى خارج الملعب وسط تهليل الجماهير وحماس المعلق الرياضى الذي كان يعوي بشكل جهنمي، في حين أمسك أحد اللاعبين بالكرة ووضعها على نقطة التسديد – نحو المرمى – من نقطة الجزاء، ثم عاد للوراء عدة خطوات فأسرع إليه عدد من لاعبي فريقه وأزاحوه بعيدًا وكلٌ منهما يصر أن يسدد ضربة الجزاء، ومع انشغالهم في التعارك استطاع لاعب – أتى من بعيد – أن يسدد ركلة الجزاء محرزًا الهدف الأول ليشتعل الأستاد بالصراخ والعويل والهرش المتعاظم، وبينما كان اللاعب الذي أحرز الهدف يجري محتفلاً بهدفه إذا به قد وضع في كمين من الفريق الآخر إذ اجتمعوا عليه فأوسعوه ضربًا حتى انفقأت إحدى عينيه، وهنا راح المعلق يصرخ معترضًا، وبسرعة هرش الحكم مخرجًا مسدسه الأحمر وصوبه نحو اللاعبين المخطئين، ثم نزلت السيارات لتحمل الجثث، وهرش الحكم ليستأنف المباراة، وتمكن الفريق المهزوم من إدراك التعادل، ومع الهدف دخلت السيارات للملعب لترفع الجثث مرة أخرى، ولم يمض وقت طويل حتى أحرز الفريق الآخر هدف الفوز، والسيارات لا تكف عن النزول لأرض الملعب الذي كان – مع بداية المباراة – مستطيلاً أخضرًا، وظل مستطيلاً حتى الآن ولكن مع تغير لونه فقط . وهكذا مضى الوقت حتى هرش الحكم معلنًا نهاية المباراة، وكان رد الفعل من الجمهور المهزوم فريقه متوقعًا تمامًا، وكانت الموقعة رهيبة، ضارية، مستعرة، وفي المقهى بدأ الأمر بتعالي الهرش المعترض والسباب ضد الحكم في حين

كان هرش البعض مدافعًا عن الحكم لتكون موقعة أخرى تنافس – في سعيرها – موقعة الأستاد، واستطاع الدليل وضيفاه الفرار من المعركة بهدوء واثق والدليل يوجه لهما سبابًا شنيعًا ويصرخ مؤكدًا أنهما السبب الوحيد لهزيمة فريقه لأنهما نحس، ونحسهما فقط ما أصاب فريقه.

- يا حضرة الدليل، أما تذكر أننا أنقذناك من هذه الحرب؟!

أجاب الدليل بغيظ رهيب:

- نعم، لكنكما – بنحسكما – أصبتما فريقي فانهزم أيها الغريبان الفضائيان الأحمقان.

- لا عليك يا حضرة الدليل، سيعوض الفريق في المباراة القادمة.

كاد الدليل يبكي غيظًا وهو يهتف هارشًا:

- سيظل فريقي يخسر طالما يطالعني وجهاكما اللذان يسدان النفس ويقطعان الماء.

- هون عليك، ألا تشجع مانشستر؟!

احمرت عينا الدليل بغضب ملتهب وهو يصرخ:

- يا لكما من أحمقين! وهل هذا يعني ألا أشجع فريقي في بلدي؟!

- هون عليك، إنها مجرد مباراة كرة.

انفجر الدليل، دمدم كالرعد، رغى وأزبد، أصر على تسليمهما لقوات أمن النظام، لم يستطيعا السيطرة عليه إلا بعد أن أقنعاه أخيرًا بأنهما سيعطيانه زجاجة ماء أخرى غير المتفق عليها.

9 - خطاب تاريخي

يوم آخر غير عادي بدأ بالمجيء المبارك للكهرباء، هلل الدليل بفرحة غامرة، انفتح التليفزيون تلقائيًا..

سيادة الوصي سيلقي خطابًا لشعبه بمناسبة ما لا أحد يعرفها.. راح الدليل يهتف بحماس حنجوري:

- بالروح بالماء، نفدي مولانا الوصي.

ثم التفت إلى ضيفيه هاتفًا:

- هيا سنذهب للمقهى.

- لماذا المقهى؟! إنه لن تقوم أي معركة بسبب خطاب الوصي على الأرجح.

- هتف الدليل بالحماس الحنجوري المرتبط بهذه الظروف:

- لا.. لا.. يوم خطاب الوصي العظيم إجازة من المعارك.

- بالتأكيد خوفًا من أن يساء فهم سبب المعركة فيتم إلقاء الطرفين في أقفاص الوصي للأبد.

- ضحك الدليل هاتفًا:

- أخشى عليكما الحسد لذكائكما هذا، والآن هيا إلى المقهى، لأن الاستماع لخطاب مولانا الوصي في المقهى له طعم خاص، كما أن مَنْ لا يحضر في المقهى فإنه...

- الأقفاص.

- ذكيان !

خرجوا إلى الشارع متجهين للمقهى، تتنافس الجموع القاصدة للمقهى في الهتاف بحياة الوصي والاستعداد لفدائه بالروح والماء.

أنهى الجميع إجراءات الحضور للمقهى ولازالوا يهتفون، والتليفزيون يعرض بعض الإعلانات ثم بعض الذين يتحدثون – بالحماس إياه – عن حكمة الوصي، وفلسفة الوصي، وإبداع الوصي، والمذيع يعلن بين وقت وآخر (بنفس الحماس) أن الجميع الآن في انتظار خطاب مولانا الوصي، ويمر الوقت ولا شيء سوى الإعلانات والأحاديث، والهتافات لا تتوقف، حتى بدأ التعب والإرهاق يحل بالجميع دون أن يخف الحماس حتى بدأت البطون تصرخ جوعًا وعطشًا ولازال الهتاف يهز أركان المقهى، ولازال المذيع يعلن – بحماسه الخرافي – أن الجميع في انتظار خطاب سيادة الوصي.

- سيادة الدليل، لقد أثبتنا حضورنا للمقهى وصوَّرتنا الكاميرات وأخذوا بصماتنا؛ فما رأيك لو نتسلل من هنا دون أن يشعر بنا أحد؟!

ضحك الدليل هامسًا في أذن أحدهما:

- الكاميرات تراقب من يحاول التسلل، وهيا اهتفا بإخلاص لأن الكاميرات ستلتقط ميلي على أذنك يا فالح.

ثم اعتدل سريعًا ليشارك في الهتافات المتصاعدة، وقد استبد به الجوع والعطش حتى كاد أن يفقد وعيه لكن مَنْ يجرؤ أن يخفف من

حماسه ، والمذيع يرمقهم – من الشاشة – مهددًا وهادرًا بقرب الإطلالة المقدسة لسيادة الوصي.

أخيرًا.. راح المذيع يتقافز كالقرد المجنون ويصرخ كالذئب الجائع فأدرك الجميع أن الوصي سيلقي خطابه التاريخي الآن واختفى الشعور بالجوع والعطش وهرب التعب من الجميع و...

وظهر الوصي على الشاشة، فإذا الهرش والصراخ ومحاولات الموازنة بين التصفيق والهرش تصير مأساة إغريقية، وبعد أن نال الوصي التحية الواجبة أشار للجميع بالصمت فإذا بالبلاد – في أقل من ثانية – تتحول إلى صمت القبور، وبدأ الوصي يعزف نشيده القدسي:

- أيها الشعب، أتحدث إليكم اليوم من علياء سمائي لأن حالتي المزاجية أوحت إليَ بالحديث، أود أن أذكركم بأفضالي المتوالية عليكم وإنعامي الذي لا ينتهي، إنكم في نعيم وفضل قل أن يجود الزمان بمثله على أي شعب من شعوب هذا الكون فارضوا بما أنتم فيه واحمدوني.

تعالى التصفيف ثم الهرش والهتاف العاوي:

- بالروح بالماء نفدي مولانا الوصي، بالروح بالماء.....

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ما هذا يا حضرة الدليل؟!

- اخرسا قبحكما الله!

- أيها الشعب، إنني أحب الحياة في هدوء، فلا أريد صداعًا، وحذاري حذاري من أي شكوى من أي نوع، فأنا لا يعنيني أمر الفقراء والضعفاء والمأزومين والجربانين، فأنا لست منهم وهم ليسوا مني.

تعالى الهتاف بحياة سيادة الوصي وتجاوب الهرش المحموم مع الهتافات العارمة التي تقسم على فدائه بالروح والماء.

- يا حضرة الدليل!!

- هذا رجل صريح واضح، صادق، لا يخدعنا ولا يسقينا الأكاذيب كما كان يفعل أسلافه، ولذا فالعلاقة بيننا شديدة الوضوح: ومن ثم يحبه الشعب ويحييه ويخلص له.. كم هو رجل عظيم!!

- أنتم شعبي الذي ورثته، وورثت حرية التصرف فيه كما أشاء، وأنا الأقدر والأحكم على أن أصنع له مصيره، وقد أمرت بزيادة الأقفاص الحديدية في البلاد لحمايتها من أولئك الخونة الذين يتشدقون بالفضيلة والقيم والحقوق وهذه الخرافات التي لا وجود لها في الواقع ولا حتى في الأساطير.

عادت الهتافات المتجاوبة مع التصفيق والهرش معلنة الإعجاب الرهيب بكلمات الوصي وبلاغته.

- يا حضرة الدليل !!

- صادق، صادق، صادق، واضح كشمس الصيف، وليس كالمنافقين الذين يتشدقون بالحرية والعدل والاكتفاء وهذا الهراء.

- ألا يوجد احتمال– ولو ضئيل للغاية– بصدق من ينادي بهذه القيم؟!

- كل من يقول مثل هذه الكلمات منافق، ضال، مضل، أثيم، خائن، عدو، عميل، لا يستحق إلا أن يقضي عمره التعيس في أقفاص مولانا لعل ذلك يغفر له عشر معشار جزء من خطاياه.

- أيها الشعب، إنني لا أكذبكم القول أو الفعل أبدًا فأنتم شعبي الذي أمتلكه.

بينما الوصي يواصل خطابه البليغ إذا به يصمت فجأة ويبدو أنه لا يجد ما يضيفه فارتفع ظفره النظيف إلى شعره المصفوف وهرش هرشًا خفيفًا للغاية مفكرًا ثم واصل حديثه و...

وهنا كان تجاوب الجماهير عاصفًا رهيبًا من الهرش المجنون والهتافات التي تمزق نياط القلوب والأمعاء قبل الحناجر، والكل يؤكد أن سيادة الوصي يهرش مثلنا، الرجل ينتمي إلى الشعب، يشعر به، هو منا ونحن منه، هو الأب الحقيقي لنا جميعًا، بالروح بالماء.....

- يا حضرة الدليل !!!

- اخرسا أحرقكما الله.

- سيستغل وزير ماليتكم هذه الظروف ليزيد ضريبة الهرش على جميع المواطنين بأمر الوصي طبعًا، ولكن سيتم إلصاق الأمر بالوزير المسكين الذي لا حول له ولا قوة.

- يا لكما من أحمقين! مولانا الوصي ليس بحاجة إلى هذه الألاعيب الصبيانية.

"أيها الناس

اكسروا أصنامكم بعد ضلال، واعبدوني..

إنني لا أتجلى دائمًا

فاجلسوا فوق رصيف الصبر،

حتى تبصروني،

اتركوا أطفالكم من غير خبز..

واتركوا نسوانكم من غير بعل

واتبعوني..

احمدوا الله على نعمته.

فلقد أرسلني كي أكتب التاريخ،

والتاريخ لا يكتب دوني".

وإلى لقاء آخر أيها الشعب الجاهل الذلول.

قضى الناس يومهم في الهتاف للوصي، وانصرفوا لبيوتهم تغمرهم بهجة اللقاء مع الرجل الذي لا يمكن أن يكون أبدًا كالرجال، وما أن وصل الدليل لبيته – مع ضيفيه – حتى انقطع التيار الكهربي.

- اسمع يا حضرة الدليل، إن المقطع الأخير من خطاب الوصي جزء من قصيدة شهيرة لشاعر أشهر لدينا يدعى نزار قباني.

استبد الغضب بالدليل وراح يهتف:

- نزاركم هذا لص، سرق قصيدة مولانا الوصي ولا شك.

هدأ الدليل وراح يهرش مفكرًا، وأخذ يدور حول نفسه تأكله الحيرة ولكن سرعان ما هتف كأنه يدفع عن نفسه تهمة رهيبة:

- لا.. لا.. هذا غير صحيح، بالتأكيد أنا مخطئ، نعم أنا مخطئ، أنا مخطئ ولاشك، لا تفسير إلا هذا.

- ماذا يا حضرة الدليل ؟!

- فلتسمعا - قاتلكما الله – فإنني سأخبركم بأمر لولا أنني أدرك أنكما مجرد كائنين فضائيين ولن تبلغا عني ما أخبرتكما به أبدًا.

- القصيدة لنزار قباني ، أليس كذلك ؟!

- أحرقكما الله وأحرق نزاركم هذا، الأمر أكبر من ذلك.

- .....

- إن خطاب الوصي اليوم لم يكن خطاب اليوم، بل هو نفس الخطاب الذي ألقاه العام الماضى، بكافة تفاصيله، وهذا يعني أن شيئًا ما حدث أو يحدث أو.... لكن لا.. لا.. أنا مخطئ بالتأكيد، أيها الغريبان الأحمقان الخائنان العميلان، فلتنسيا هذا الهراء الذي هذيت به الآن، وإلا فالأقفاص تنتظرنا جميعًا.

10- وكر الفضيلة

على غير العادة فوجئ الناس بضيف عزيز يحل عليهم على غير موعد، وجود التيار الكهربي يحتاج لحفل خاص، ويحتاج أيضًا لمعرفة السبب، التليفزيون عمل تلقائيًا بمجرد وجود التيار، المذيع الوسيم يتقافز كالقرد الغاضب:

- أيها الشعب، وكر الفضيلة، وكر الفضيلة.

- ما هذا يا حضرة الدليل ؟!

- اخرسا حتى نعرف.

راح المذيع يهدر:

- استطاعت قواتنا الباسلة العظيمة الرائعة، بأوامر عليا، وتوجيهات قدسية من جلالة سيادة الوصي، أن تكتشف وكرًا جديدًا به عدد من الأشرار كان يمارسون الفضيلة والعياذ بالله، كانوا يهرفون بمرادفات مرعبة، يشيب لها الولدان وتجهض منها الأرحام الصناعية، كانوا يقولون ...

يقولون...

يقولون...

لكن لا، لن ألوث أسماعكم بمفرداتهم النجسة، ولكن اطمئنوا وقروا عيونًا؛ فإن قواتنا قامت بالمطلوب تمامًا، وإليكم صورهم وأصواتهم.

اختفت صورة المذيع لتظهر الأقفاص المرعبة، وإن كانت أكثر رعبًا، ووسائل التعذيب وآلاته فيها متعددة، متشابكة، معقدة، تشعرك بأن آلافًا من البشر عاشوا آلافًا من السنين يتفننون ويبدعون في كيفية إيذاء وتعذيب الآخرين.

- لدينا في كوكبنا الأرضي أديب عراقي يدعى "عبود الشالحي" أصدر موسوعة مذهلة بعنوان "موسوعة العذاب" تتكون من سبعة مجلدات ضخمة تحكي عن وسائل التعذيب وطرائقه وألوانه المريعة التي كان يمارسها الطغاة والغزاة ضد البشر.

أخذ الدليل يهرش مستهينًا:

- سبعة مجلدات فقط ! على رجلكم هذا أن يزور بلادنا الحبيبة ويطوف بالأقفاص – في طول البلاد وعرضها – ليخرج بموسوعة لا تحويها مكتبة كاملة، إنكما تلاحظان أن وسائل التعذيب في أقفاص كل منطقة تختلف تمامًا عنها في بقية المناطق، فكل منطقة تمثل حالة متفردة، مبدعة، متميزة عن غيرها.

- ولكن يا دليلنا المتمكن، الناس لديكم لا يعنيهم أمر هذه الأقفاص، فهم يمرون أمامها، والأطفال يلعبون حولها، والعشاق يلتقون عندها.

ضحك الدليل وهو يحك ظهره بالحائط ويهرش بكلتا يديه:

- هذا لأن الكاميرات الالكترونية – في الأقفاص – تراقب عيون الناس وانفعالات وجوههم في محيط دائرة قطرها مائة متر، وإذا

اصطادت الكاميرات أي تعاطف من أي نوع أو تأثر فإنها تطلق أشعة خاصة تصيب هذا الشخص الرومانسي فتجعله مميزًا تمامًا لقوات أمن النظام فيتم القبض عليه وإيداعه القفص فورًا.

- يمكن للناس الابتعاد تمامًا عن هذه الأقفاص اللعينة.

عاد الدليل يهرش ساخرًا:

- هذا أيضًا غير متاح، فأن تهرب من القفص فهذا معناه أنك متعاطف يخشى افتضاح أمره، وقد كان بعض المنافقين والموتورين يقفون أمام الأقفاص مظهرين الشماتة البالغة والسخرية السقيمة بمن في الأقفاص، ويهتفون بحياة سيادة الوصي إلا أن الكاميرات الجبارة كان يمكنها أن تلتقط (من بين الصياح والهرش والنظرات والإشارات الكارهة الشامتة) أي ومضة تعاطف غريزية نادرة تودي بصاحبها إلى القفص، لذا لم يكن أمام الناس إلا تدريب أنفسهم وأولادهم على الاقتراب من الأقفاص مع تجاهلها التام وكأنها لا وجود لها.

- هذا عذاب في حد ذاته.

هتف الدليل هارشًا بعنف متحمس:

- سيادة الوصي يدربنا ويعلمنا ويرفع قدراتنا و...

- مفهوم يا دليلنا العزيز، ويكتشف فيكم القدرات الكامنة.

- إنكما أذكياء للغاية أيها الغريبان الغبيان الأحمقان.

انقطع التيار الكهربي بمجرد أن أتم المذيع المهمة المطلوبة.

- نرجوك يا دليلنا الهمام أن تخبرنا بهذه المفردات المدنسة التي يعتنقها هؤلاء الذين يمارسون الفضيلة في الأوكار وقد خاف المذيع الظريف أن يلوث بها أسماعنا.

- إنها السبب الأول والرئيس لقضاء العمر كله في الأقفاص، وليس بين الرجل والأقفاص إلا أن يسمعه أحب وأقرب الناس إليه ينطق بإحداهما ولو على سبيل السخرية.

- يا حضرة الدليل، نحن جئنا إلى هنا لنعرف لا لنبلغ عنك، وأنت معنا في ظروف خاصة لا تنطبق عليك بعض قواعدكم وقوانينكم هنا، وقد رأيت بنفسك كيف هربنا بك من عدة مواقف مميتة، فهيا أخبرنا.

راح الدليل يهرش متوترًا:

- كله إلا هذا.

- .....

- .....

- سنعطيك زجاجة ماء ثالثة.

- .....

- ولن يعرف مخلوق أنك قد التقيت بنا أصلاً.

- ليست أسرارًا ولا أشياء مدهشة، فأنتم تعرفونها جيدًا، إليكما بعض هذه المفردات على سبيل المثال.

زفر الدليل مستعدًا وقد امتقع وجهه وراح يتلفت حوله – ربما للمرة الألف – ليتأكد ألا أحدًا يسمعه ثم انطلق:

- مظاهرة.. مسيرة.. احتجاج.. حق.. عدالة.. ظلم.. ثورة.. كرامة.. ديمقراطية.. أمان.. اكتفاء.. وعي.. كتب.. بحث علمي.. قراءة.. علم.. علماء.. ورق.. قلم.. كمبيوتر.. حداثة.. وعي.. سياسة.. فن.. أدب.. النظام.. يسقط.. مشاعر.. إرادة.. مقاومة.. إبداع.. اجتماع.. اعتصام..

إضراب.. مدنية.. الجمال.. الحق.. ميدان.. الخير.. حرية.. نقد.. استبصار.. استقراء.. توقع..

كان الدليل يطلق الكلمات بتلذذ وشهوة غريزيين غريبين والضيفان يراقبانه متعجبين متساءلين متى يكف وقد بدت الكلمات وكأن سدًا منيعًا حصينًا كان يحتجزها فلما انهار السد انطلق الماء الهادر طوفانًا وتدفقت الكلمات قوية، عفية، هادرة، منذرة، حارقة، هائجة، مائجة، موحية، ملهمة، قادرة.

11- عالم آخر

قال الدليل وهو يهرش بحماس:

- الآن نحتاج لقدراتكما الفضائية كي نزور جانبًا آخر في بلادنا الغالية.

- لا بأس يا دليلنا الجميل.

- هيا بنا.

قصر فخم ضخم، تحيط به حديقة غناء، وبه حمام سباحة أوليمبي خيالي الشكل، أبدع مَنْ صممه إبداعًا خاصًا، وفي حديقة القصر امتدت مائدة طويلة تبدو بما عليها من صنوف الأطعمة الشهية والمشروبات الفاخرة وكأنها قادمة توًا من حكايا ألف ليلة وليلة، تتناثر عليها عدد من أفراد الأسرة يطوف عليهم الخدم المتوترين اليقظين في انتظار أي إشارة لتلبيتها فورًا، والأب يقول متأففًا:

- ألن يأتي هذا الولد ليتناول غداءه معنا ؟!

تجيبه الأم بعدم اكتراث:

- دعك منه.

وفي الداخل يقف شاب مراهق أمام صنبور المياه (الذي انفتح عن آخره) ليحلق ذقنه باستمتاع متمهل وهو يدندن بلحن أغنية شهيرة هذه الأيام. فلما أوشك ينتهي رن هاتفه المحمول بعبارة:

"المزة تتصل بسيادتك يا أفندم".

كان المحمول بعيدًا عن متناول يده عدة أمتار فأشار إشارة خاصة تجاه المحمول فإذا بالأخير يطير من مكانه ليستقر في كف صاحبه كي ينعم الأخير بالنظر إلى الأنثى التي تظهر صورتها مجسمة مرتدية ملابس السباحة ذات القطعتين وهي تناديه.

طالت المكالمة الهاتفية وأنهاها الشاب بـ:

- أنا قادم إليكم حالاً.

نادى خادمته الشابة كي تساعده في ارتداء ملابسه، إشارة أخرى ثم ضغطة على زر بالهاتف المحمول فإذا بالسيارة تصدر عبارة "مستعدون للانطلاق يا سيدي".

نزل السلم بقفزات مرحة، مر على حديقة القصر دون أن يلقي التحية على الجالسين لتناول الطعام، وقد ترك الصنبور يقذف بدفقات الماء المندفعة في الحوض الزجاجي الذي يدفعها بدوره إلى البالوعة الفضية، وجاءت الخادمة فأخذت شيئًا ونظرت للصنبور المفتوح نظرة متبلدة ثم انصرفت متكاسلة.

- وصل الشاب إلى سيارته الجوبرمائية وهمّ بالقفز داخلها برشاقته المعهودة إلا أنه لاحظ (في أحد إطاراتها) شيئًا يكاد لا يرى بالعين فنادى خادم السيارة غاضبًا:

- يا عبده، أنت يا زفت يا عبده.

جاء عبده مسرعًا وقد ترك خرطوم المياه مفتوحًا:

- تحت أمر سعادتك يا باشا.

- هل غسلت هذه السيارة ؟!

- غسلتها تسع وتسعين مرة يا معالي الباشا، وها هي تبرق كأنها لؤلؤة سقط عليها شعاع الشمس.

- اغسلها مائتي مرة يا حمار، انظر لهذا الشيء على الإطار.

- حاضر يا باشا.

- ترك الباشا المراهق السيارة لعبده واتجه بهدوء يستعرض صفًا من السيارات المماثلة فاختار إحداها منطلقًا بها ليلتقي بالثلة في النادي.

- أما الباشا الكبير فقد انتهى من غداءه، واستلقى يستمتع بحمام شمسي ثم قرر أن يبدأ التدريب استعدادًا لبطولة السباحة في النادي، فبدل ملابسه، وراح يعوم في الحمام الأوليمبي، ويغطس باستمتاع وهو يغني بنفس الأغنية الشهيرة هذه الأيام، وفجأة استجاب لفكرة هبطت عليه كالوحي فخرج من الحمام مناديًا:

- يا إدريس، أنت يا زفت يا إدريس.

يأتي إدريس مسرعًا ليلبي أمرًا قدسيًا.

- نعم يا باشا.

- لقد تغبرت مياه حمام السباحة الخاص بي، قم بتغييرها الآن كي أستمتع بحمامي.

- لقد غيرتها منذ دقائق فقط يا سيدي الباشا.

صرخ الباشا بنفاد صبر:

- غيرت مياه الحمام الأوليمبي، وليس حمامي الخاص يا غبي، يبدو أنك كبرت ولم تعد تركز في عملك.

اصفر وجه إدريس برعب عجيب وهو يهتف بضراعة:

- لا يا معالي الباشا، لم تكبر سني، أنا طوع بنان سعادتك، سأغيّر مياه الحمامين، الحمام الخاص بسيادتك والحمام الأوليمبي أيضًا.

ابتسم الباشا راضيًا.

- هكذا يكون النشاط يا إدريس.

وفي النادي أمام الحمام الأوليمبي احتشدت الجماهير المرفهة لمشاهدة المسابقات وللاستمتاع بحمام شمسي، لذا فقد تخلص معظمهم من معظم ملابسهم، والمعلق الرياضي يقول بحماس وأنغام الموسيقى الهادئة تمنح صوته سحرًا خاصًا:

- والآن أيها السادة، فقد فاز في سباق مائة متر حرة أكرم باشا، والسباق القادم مائة متر فراشة، وسيشترك فيه زهدي باشا، ونوال هانم، و.... و.....

- وكما هو متبع في نظام التسابق لابد من تغيير مياه الحمام قبل كل سباق، وإلى أن يقوم الخدم بتغيير المياه دعونا نستمع إلى موسيقىأخرى، ونشاهد بعض عروض الباليه المائي في الحمام رقم 33.

وعلى الفور راح المدرج – الذي يستلقي فيه الجمهور – يستدير على قاعدة هيدروليكية ليواجه حمام رقم 33.

- من هؤلاء يا حضرة الدليل ؟!

أجاب الدليل بحماس:

- هؤلاء علية القوم.

- وهل كل هذا الماء الذي رأيناه هنا وفي القصر ماء عذب ؟!

- عذب فرات، نقي بنسبة مائة في المائة.

- آه !

- ماذا قبحكما الله ؟!

- إنها نفس الثنائية البشعة الشهيرة، قلة نادرة تمتلك كل شيء، وتبلع الأخضر واليابس، وكثرة كاسحة لا تملك شيئًا على الإطلاق.

- زمجر الدليل هاتفًا:

- هل لديكما اعتراض ؟!

- الاعتراض يجب ألا يكون لدينا: فنحن مجرد كائنتين فضائيين، ودورنا ينتهي عند الدهشة والتأمل، أما البقية فأنتم وحدكم المسئولون عنها، وحدكم أصحاب الشأن في بلادكم. إن أردتم!!

12 - خاتمة

ضحك الدليل هارشًا بسعادة:

- الكهرباء ! إذن هناك أمر جلل ولاشك.

ولم يخب حدس الرجل إذ سرعان ما ظهر المذيع متظاهرًا بالحزن:

- أيها الناس، ننعى لكم ببالغ الأسى والحزن و... و... سيادة الوصي.

وسرعان ما انقلبت لهجة المذيع إلى الفرحة الغامرة وهو يضيف:

- وَنَزُفُ لكم البشريات والتهاني بسيادة حضرة صاحب الفخامة والسمو، المنقذ وال... وال... وال...

الوصي الجديد، والآن قوموا إلى المقاهي حتى تستمعوا للخطاب الأول من سيادة سيادته.

- مات الوصي.. عاش الوصي.

- هناك أمر يشغلنا يا حضرة الدليل، ماذا ستفعلون بكل الصور والتماثيل الخاصة بحضرة الوصي السابق؟!

انتفض الدليل غاضبًا:

- أجحمه الله، كم كان ظالمًا، باطشًا، كم أجاعنا! كم.. وكم.. كان أسدًا علينا وعميلاً ذليلاً للقوى الكبرى وكان...

- مهلاً يا حضرة الدليل، اذكروا محاسن موتاكم.

- عندنا لا محاسن للموتى، فقد أنعم الله علينا بمن سينقذنا من كل ما نحن فيه.

- .....

- قبحكما الله ! ماذا تريدان ؟!

- نريد إجابة عن سؤال ماذا ستفعلان بكل هذه الصور والتماثيل القديمة ؟!

مط الدليل شفتيه بامتعاض:

- كما يحدث كل مرة، مجرد إعادة تدوير للصور والتماثيل القديمة لتصبح كلها للوصي الجديد، وينسى الجميع كل شيء عن القديم، هيا معي نتجول في بعض الشوارع. كانت الشوارع والطرق...

والبنايات والبيوت..

والمحلات والمكاتب..

والشركات والأكشاك..

وغرف النوم والملابس الداخلية..

كلها تقبع فوقها صور وتماثيل الوصي الجديد.

- بهذه السرعة !

- التكنولوجيا هنا مبهرة للغاية.

- تستطيعون استغلالها لصالحكم، والآن حان وقت عودتنا لكوكبنا، نشكرك بشدة يا دليلنا على ما قدمته لنا من خدمات، والآن إليك زجاجات الماء المتفق عليها.

احتضن الدليل الزجاجات ثم أسرع بإخفائها قائلاً بأمل:

- هل يمكنكما أن تعطياني قدراتكما الفضائية ؟!

- بداخلكم قوة أعمق وأعظم.

- ألا يمكنكما أن...

- أنتم وحدكم المسئولون.